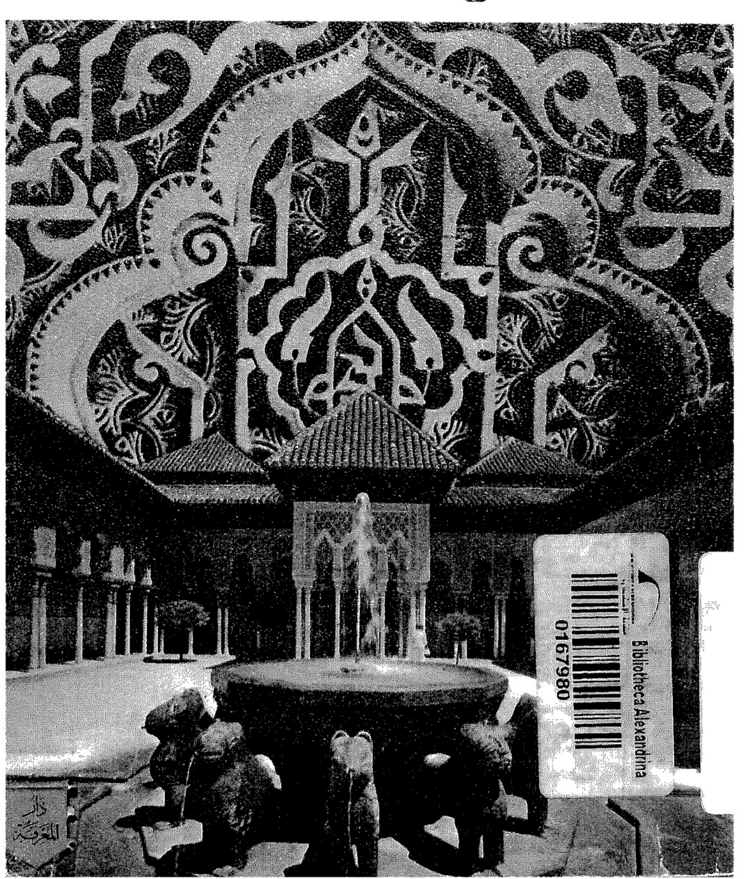
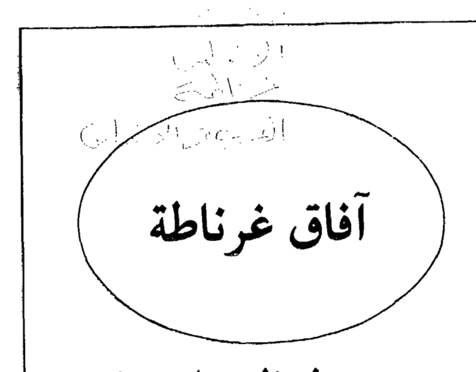
آفاق غرناطة

عبد الحكيم الذنون




افاق
غرناطة



بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي

ملحق ـ موجز تاريخ الأندلس العربي

History of Granada

by

Abdul Hakim. Dannon

عبد الحكيم الذنون



الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



نشر توزيع طباعة ترجمة

دمشق - خلف الطرود البريدية - شارع الجمهورية
سجل تجاري ٥٤٠٩٢ ✉ ٣٠٢٦٨
☎ ٢١٠٢٦٩ تلكس ٤١٢٥٣٥ طه

مطبعة الصباح

دمشق - هاتف ٢٢١٥١٠

عدد النسخ (٢٠٠٠)

تصدير

بسم اللّه الرحمن الرحيم

● «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا ان اللّه مع الصابرين».

ـ الانفال ٤٦ ـ

منذ فجر التاريخ القديم والعرب يضطلعون بمهام ريادية في مختلف المجالات السياسية والحضارية، وبعد انطلاقة الاسلام من أرض العرب إلى البشرية كافة، نضج ذلك الدور البارز وتبلور بآفاق وتقنيات وقيم خالدة أمدت البشرية بعطاءات جمة.

ففي عهد الدولة العربية الاسلامية، نرى العرب يخططون الأمصار والمدن والقصبات وينشؤونها، وقد اندثر البعض منها أوتضاءلت أهميته، في حين ازدهر البعض الآخر، وتطور إلى مدن وحواضر كبيرة، أصبحت منائر اشعاع للحضارة العربية الاسلامية.

فقد شيّد عقبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدينة البصرة في عام ١٤ هـ (٦٣٥م)، ثم أسس أبو الهياج الأسدي مدينة الكوفة في عام ١٧ هـ (٦٣٨م)، وأقام عمرو بن العاص مدينة الفسطاط في عام ٢١ هـ (٦٤١م)، بمؤازرة بعض قادته ومساعديه الذين نهضوا بتخطيطها.

وفي عهد الدولة العربية الاسلامية (العصر الاموي) وحده أكثر من خمس وعشرين مدينة جديدة من بينها القيروان التي شيدها عقبة بن نافع في

عام ٥٠ هـ (٦٧٠م)، كما بنى والي القطــر العــربي العــراقي الحجــاج بن يوسف الثقفي في عهــد الخليفــة الأموي عبد الملك بن مروان، مدينة واسط في عامي ٨٣، ٨٤ هـ (٧٠٢، ٧٠٣م).

وفي عهــد الدولة العربية الاسلامية (العصر العباسي) اختطت مدن عدة اخـرى، منهـا ـ العسكـر ـ التي بنيت على أيـام أبو العباس السفاح في شمال الفسطاط في عام ١٣٣ هـ (٧٥٠م)، كما قام الخليفة أبو جعفر المنصور بتأسيس مدينـة السـلام أو بغـداد في عام ١٤٥ هـ (٧٦٢م)، كما قام الخليفة المعتصم بعد ذلك بتأسيس مدينة سامراء في شمالها، فالقطائع، قاعدة احمد بن طولـون في مصـر عام ٢٥٦ هـ (٨٧٠م)، والعبـاسـة ورقـادة وسـوسـة ووهدان وفاس في المغرب، واتسعت أرجاء المدن القديمة في الوطن العربي مثـل مكـة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والموصل وحلب والقدس وقرطبة وعشـرات غيرهـا من المـدن العـربي التي اصبحت مراكز للحضارة العربية الاسلامية تضيء العالم بنشاطاتها ونتاجاتها وفعالياتها العلمية والأدبية والفنية.

فرسـالـة العرب اذن قيمٌ انسانية واخلاقية خالدة وعملٌ وبناء وعطاء ونتاج حضاري ناضج.

لقـد حمل أبنـاء العروبة راية القائد المعلم محمد بن عبد الله صلى الله عليـه وسلم، فاستحـالت الأرض إلى ورشــة عمـل كبرى عنـوانهـا البنـاء والانتاج والعطاء الحضاري والانساني.

فالعرب إذن بناؤون ومؤسسوا حضارة عالمية لا تزال آثارها شاخصة على مرّ الحقب التـاريخيـة. لقـد بنوا فيها بنوه المدن الكثيرة التي استقر فيها دينهم العظيم وحضـارتهم النـاضجة، ومـا زالت حتى اليـوم تتحدث عن ماضٍ تليد وتراث علمي زاخر.

لقـد نهضت في الأنـدلس العربية مدن شتى تفصح عن كفاءة العرب المسلمـين في تخطيـط وبنـاء المـدن، ومنها قرطبة وطليطلة واشبيلية وغرناطة

التي هي موضـوع بحثنـا هذا، والتي كانت آخـر مظهـر من مظـاهر السيادة العربية في الأندلس باعتبارها آخر دولة عربية حكمت هناك.

وسطعت اشبيليـة في أيـامها العربية وخاصة في عهد بني عباد، ملوك الطـوائف في أواسـط القـرن الحادي عشر الميلادي وكانت عاصمة مملكتهم العظيمـة، وسطعت كذلـك خلال حكم المـوحـدين حيث كانت مركـز حكمهم في الأنـدلس زهـاء قرن من الـزمان من منتصف القرن الثاني عشر إلى منتصف القـرن الثـالث عشـر، ثم سقطت في أيدي القشتاليين في شهر تشرين الثاني ١٢٤٨م.

أمـا غرنـاطة فسوف نقوم بتسليط الضوء عليها من خلال فصول هذا الكتاب في محورين أساسيين وهما الجانب السياسي والجانب الحضاري.

لقـد تركت غرنـاطـة أثـراً أبعـد مما تركته شقيقتها العربية الاندلسية «قرطبة» على الرغم من أن ظهور غرناطة في التاريخ العربي الأندلسي كان متأخراً عن ظهور قرطبة، فإننا نذكرها وندرس طبيعة حكمها نظراً لما تركته من الأسـى والحـزن في قلوبـنـا ولكن ليس بمعـزل عن بقيـة الأرجـاء الاندلسية، ذلك لأن نكبة غرناطة مرتبطة بالواقع السياسي الأندلسي الذي سبقهـا والـذي كان يسوده التنازع والتناحر مما مهد لتجزئة الديار الاندلسية إلى أشلاء متناثرة انقض عليها أعداء الأمة العربية، الواحدة تلو الأخرى، فكان مسلسل الهزائم المؤسف.

إن أي مجتمع كان مهما بلغ حجمه وطبيعة أحواله يحتاج إلى مقاييس تكـون بمثـابـة وازع أو قانـون أو عرف أو نظـام يتم بموجبه ضبط السلوك الظـاهـر. ولمـا كانت هذه المقـاييس خرساء لا تتكلم وليس لديها الكفاءة والوسيلة التي بموجبها تستطيع تحريك مكامنها الذاتية لتحرك نفسها باتجاه تكـريس موجـوداتهـا ومضـامينها من أفكار وقيم وممارسات نابعة من ضمير المجتمع وحقيقته المطلقة وعقيدته الفكرية.

من هنـا كان لا بد وان يكـون هنـاك متكلم بصـوت جهـوري قوي

ينطق باسم هذه الأعراف والمقاييس والمبادىء والنظم لتغدو الممارسات سليمة وجذرية وعادلة . . ينبغي ان يكون هذا الوازع «الناطق» قوياً ولا تعلو عليه أية إرادة سوى إرادة الله ، لكي تتحقق القيمة المطلوبة حينما ينفذ هذا العامل أو الناطق في أفراد الجماعة ـ المجتمع ـ ما يوجبه ذلك الوازع عليهم .

نقول باستمرار ان المجتمع بدون مقاييس واسس واعراف والخ . . من حقوق افراد الجماعة ، ولكن المسألة تكمن في الناطق والعامل الذي اشرنا اليه نظراً لكون هذه القيم والأعراف والنظم المستنبطة من ايديولوجية المجتمع وحركة التاريخ ، تتحول عن طريقه من اطار نظري إلى قيمة عملية تتابع خطواتها وفعالياتها بشكل حازم وإيجابي .

ان عمل هذه القوة ـ الوازع ـ ينبغي ان يكون مقتدراً وليس مكبلاً ، ذلك لأن دوره مهم واساسي كونه يمنع بعض الأفراد من الاعتداء على البعض الآخر ، علاوة على انه يسهم في وضع منهج علمي متبلور لتنظيم سلوك الجماعة في الحياة الواقعية المعاشة حتى تتمكن هذه الجماعة من تحصيل خبزها وحاجاتها ، وتتمكن من مواجهة التحديات التي تستهدفها .

وفي هذا الصدد يقول إبن خلدون : «إن البشر لا [تتم] حياتهم و[لا يطمئن] وجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروریاتهم ، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ، ثم مد كل واحد منهم يده إلى حاجته ليأخذها من صاحبه ـ لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم وعدوان بعض (البشر) على بعض ، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية ، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتله ، وهي تفضي إلى الهرج وسفك الدماء ، واذهاب النفوس المفضي إلى انقطاع النسل . . فاستحال بقاء (الناس) فوضى بلا حاكم يزع بعضهم عن بعض ، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم ، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم» .

والمقصود بالملك هنا، هو المالك لامور الجماعة، والمسير لمقاليد الحكم سواء أكان منصبه ملكاً أو رئيساً أو أميراً أو والياً أو قائداً . . ، ومهما اختلفت التسميات المتعلقة بالموقع أو المنصب فان العمل والغاية واحدة، فالعمل هو ضبط الامور ورص الصفوف للبناء والدفاع عن الوطن.

إن شكل الدولة أو الحكم المستعرض آنفاً يشبه ان يكون هو الاستبداد او المركزية - إذا حاكمنا المفهومة أو المصطلح بمقاييس العصر الراهن - وهو أقدم أشكال الحكم في التاريخ، والذي يهمنا في هذا الاستعراض عن ضياع الأندلس وانهيار الدولة العربية الاسلامية في تلك البقعة هو السؤال الذي يجيب عنه بحثنا هذا وهو هل استفاد الحاكم من مسألة أساسية ألا وهي توظيف شكل الحكم هذا لتحقيق مقاصد المجتمع وأهدافه واتجاهاته أم لا؟! . .

ان فلسفة وعقيدة المجتمع قائمة على معطيات جماعية ولكن لا بد من وجود رأس يوجه الخطوات ويدير العجلة ويتابع المسارات من خلال ادارة كفوءة وحازمة للمؤسسات (الوازع - العامل)، ومحاسبة كل مقصر، علاوة على ذلك بروز خصوصيته في الرؤيا لمستقبل الدولة والمجتمع.

وشواهد التاريخ قبل أن نذكر مفصلاً ما حلّ بالأندلس كثيرة حول ذلك، وتطالعنا الأحداث عبر الحقب بأن لفظة المستبد لا تدل في أصل معناها على ما نعني به اليوم في المفاهيم السياسية المعاصرة، فلقد كانت تلك اللفظة في الدولة الرومانية وصفاً جميلاً محترماً، فلا ضير من استعراض معنى هذه الكلمة ومن فهم حقيقة وطبيعة هذا المنصب الذي كانت الكلمة تدل عليه.

ففي بلد تمر به أزمة من الأزمات - أزمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو مدنية أو عسكرية - برضا قوه (إذ يوليه القوم ثقتهم) فيشرع بالضرب بيد من حديد على كل اسباب التقصير والسلبيات، ولا يضيع وقتاً في التوفيق بين الآراء المتضاربة فيتقدم بما له من رصيد شعبي أو كفاءة

سياسية أو قوة عسكرية إلى إشغال الموقع الأول في الدولة والمجتمع.

ونحن لا ننكر مسألة مفادها ان رجل السياسة له طموحاته، ولكن ينبغي ان ندرك ايضاً ان التاريخ هو ارضية الرجل السياسي، لأنه يعطي الدورس والأمثلة الكثيرة، فمثلاً يجب أن نعلم بأن الذين تآمروا على يوليوس قيصر ثم اغتالوه انما فعلوا ذلك في جر النفع إلى أنفسهم.. لقد كان في اعتقادهم إذا اصبح موقع الحكم شاغراً بموت يوليوس قيصر فإنه سوف يخلو لهم وحدهم.. ولكن هل خلا المنصب فعلاً لهم؟! أبداً.. لم يخل لهم.. ثم غرقت الامبراطورية الرومانية بعد ذلك في اتون صراعات شديدة ومنازعات خانقة.

ان قتل شخص لا يحل مشكلة، بل ربما زاد المشكلة تعقيداً، وربما أثار مشاكل جديدة. وهناك حقيقة من حقائق التاريخ مفادها أن المجيء بشخص أو الذهاب بشخص قد يبدل عدداً من معالم التاريخ، ولكن لا يبدل مسار التاريخ، وفي هذا السياق نستشهد بأمثلة من تاريخنا العربي الاسلامي حتى نصل إلى العصر الاندلسي فيما بعد: ان اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم ينقذ المجوسية في ايران، وان اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، لم يقعد بني اميّة عن طلب الخلافة، وان اغتيال الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لم يثبت حركة الخوارج في المجتمع الاسلامي طويلاً، ولا هو فت في عضد بني هاشم إلا قليلاً.

ان حالات التبعثر والتمزق والوأد والابتعاد عن روح الامة وعقيدتها هو الذي غيّر بعضاً من معالم التاريخ العربي الاسلامي المتصاعد، إلى حالات سلبية طارئة غريبة سماتها العد التنازلي.

واعيد القول بأن تغيير معالم التاريخ هو ليس اطلاقاً تغيير مساره ومجراه إلاّ في فواصل زمنية ضمن معايير واسس تتفاعل مع الحياة ومعطياتها.

ان التـاريـخ يبـدل مجراه ـ في ازمنة متباعدة أو متقاربة ـ ولكن ضمن ارضيـات وقـواعـد اجتـماعية . . وهذه القوانين والنواميس تعمل عملها في التفاعل مع الحياة ولو كانت تلك القواعد غائبة عن عيون قلة من الناس أو كثرة منهم . . وربما كَمَنَ أثر تلك القواعد مدة ثم برز فجأة في التاريخ الانساني .

ان العـــرب لم يخرجـوا من الأنـدلس في عام ٨٧٨ هـ (١٤٩٢م) يوم سقـوط غرنـاطـة ، حين دفـع القـوط الاسبـان بقـاياهم عنها بتلك الطريقة العدوانية الهمجية .

خروج العرب من الأندلس بدأ يوم بدأ العرب يتنازعون فيما بينهم في عام ٤٠٠ هـ (١٠١٠م) ، فبـدأت بذلـك مرحلة الانقسـامـات والولاءات المتعددة ، فمن خلافات المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس إلى تبعثر الامة الاندلسية وتحللها إلى طوائف وملل ودويلات تتنازع فيما بينها مما ادى ذلك بالنتيجة إلى قيام الممالك المعادية مثل قشتاله وليون باحتلال أجزاء من الأنـدلس في عام ١٠٨٥م ، حيث استـولى الفـونسـو السادس ملك قشتالة وليـون على أكـبر ممالـك الطـوائف وهي طليطلة ، ومنـذ ذلك الحين لم يعد الأندلس يشمل سوى ثلث شبه الجزيرة فقط .

وبعد قيام يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ومؤسس مدينة مراكش المغـربيـة ، بتحـرير أجزاء من الأندلس ، بدأت الخلافات والمنازعات تظهر بين أفـراد الأسـرة الـواحـدة ـ المرابطين والموحدين ـ وضعف أمر الموحدين وتفاقمت الفتنة بينهما ، فثار نفر من الأندلسيين ، واستغل الاسبان ذلك فقام ملك أراغـون بمبـاغتـة الأنـدلسيـين والاستيـلاء على الثغـر الأعلى سنـة ١١١٨م ، وبذلك تقلص حجم رقعة الأندلس .

وخـلال النـزاع الأهـلي المشـار اليـه اعـلاه بين المـرابطين والموحدين

سقطت عدة مدن اسلامية منها طرطوشة، وقلعة رباح، والمنطقة التي تعرف حالياً بدولة البرتغال، وفي عام ١٢٣٦م، سقطت قرطبة عاصمة الاندلس كله، ثم بلنسية، ثم مرسيه، ثم سقطت اشبيلية في عام ١٢٤٨م، وتبعتها شذونه وقادش.

وفي غمرة هذه الفواجع القاسية قاوم المجاهدون هذا السيل العدواني العارم الذي يستهدف في محاولة يائسة الامة العربية وعقيدتها الاسلامية ذلك لأن العروبة جسم روحه الاسلام.

لقد ضرب المدافعون عن الحصون الاسلامية مثلاً رائعاً في الشجاعة والاستبسال.. لقد استشهد الكثير الكثير في سبيل الله فكانت سيوف الشر والعدوان تأكل من أجسادهم وهم متخطين السبعين من العمر.

في وسط هذه المحن القاسية والطوفان السوداوي استطاع فارس عربي أندلسي هو محمد بن الأحمر من بني نصر أن يعتصم في غرناطة ليجمع شمل المسلمين الذين سقطت مدنهم تباعاً.. لقد حصّن غرناطة والمناطق المحيطة بها تحصيناً منيعاً. واستطاع ان يتصدى للهجمات الاسبانية ابتداءاً من عام ١٢٣١م، وفي هذه المنطقة الاندلسية صمدت الدولة العربية الاسلامية في غرناطة قرنين ونصف القرن حتى تمكن منها الاسبان في عام ١٤٩٢م.

وهكذا يبدو لنا ان سقوط الدولة العربية الاسلامية في الأندلس بشكل عام، وخروج العرب من الأندلس كان عام ٤٠٠ هـ (١٠١٠م) حينما بدأ العرب المسلمون يتنازعون فيما بينهم للفوز بالمغانم وبحياة الترف والانحلال قبل ان يغادر الملك المخلوع ابوعبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة بخمسمائة عام.

ولما زفر ابو عبد الله هذا زفرته الأخيرة وبكى وهو يلقي نظرته الأخيرة على قصر الحمراء قبيل مغادرته، ربتت امه السيدة عائشة الحرة على كتفه وقالت له:

إبــكِ مثــل الـنســـاء ملكــاً مضــاعــاً

لم تحافــظ عليــه مثــل الـرجــال

إن أبــا عبــد الله هذا لم يكن المسؤول وحــده عن خروج العــرب المسلمـين من الأنـدلس، بل يشترك معه في المسؤولية عشرات الملوك الذين حكمـوا قبله ومئات الـرؤسـاء الذين سبقوه والوف الناس الذين عاشوا في اتـون ذلـك الصـراع وعشـرات الوفهـم ومئات الوفهـم لأنهم ساهموا بشكل مبـاشـر أو غير مباشر في جريمة ضياع الاندلس - الأرض والدولة والانسان والحضارة والتاريخ والقيم.

إن مشهـد السقـوط التراجيدي - المأساوي - لغرناطة، والذي رافقته واعقبتـه الـزفـرة تلوالأخري ندمـاً وحسـرةً على ضيـاع آخر معاقل وصروح الدولة العربية في الأندلس، يتكرر هذا المشهد في كل يوم من أيامنا الراهنة، فكل مدينة عربية هي غرناطة في ظل العصر العربي المعتم . .

وتتـوالى الـزفـرات بعـد أربعـمائـة عام من نكسة غرناطة حينما نجد فلسطـين والقـدس في ظل الاحتـلال الصهيـوني بسبب التجـزئة والتفكك والتنـاحـر والـولاءات المختلفـة، وهي الأسبـاب ذاتها التي أدت إلى ضياع الأندلس بعد أن تواصلت فيها العروبة والاسلام ثمانمائة عام.

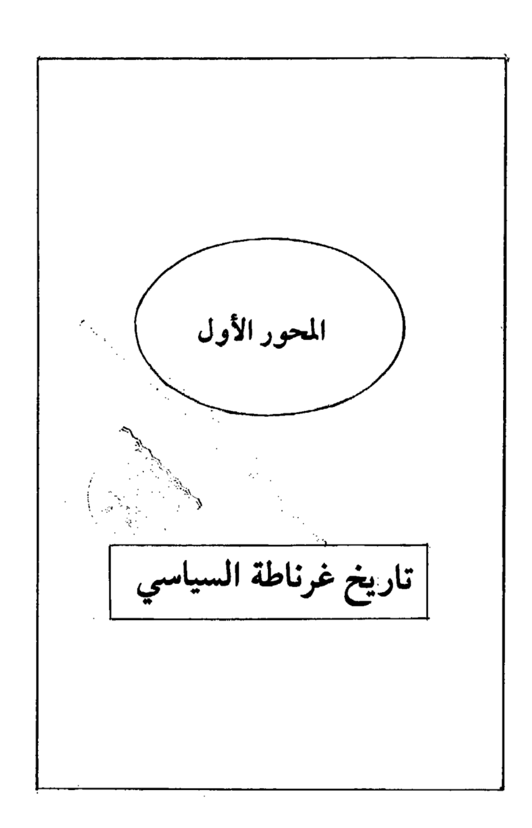
إن في ذلك لعبرة

رمضان ١٤٠٧ هـ
مايس ١٩٨٧ م

عبد الحكيم الذنون

الإهـداء

إلى المؤمنين بالتاريخ العربي



المحور الأول

تاريخ غرناطة السياسي

الفصل الأول

فتح العرب الأندلس

● لم تشهــد بلاد الأنـدلس في تاريخهـا كله حكـماً أكثـر حزماً وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب.

ول ديورانت

ـ قصة الحضارة ـ

في عهـد الخليفـة عمر بن الخطاب رضي الله عنه استؤنفت علميات الفتح العربي الاسلامي لأفريقيا العربية، فقد تم فتح مصر بقيادة عمرو بن العــاص رضي الله عنـه في عام ٢١ هـ (٦٠١م)، ومن ثم فتحت طرابلس الغرب بقيادة عقبة بن نافع في عام ٢٣ هـ (٦٠٣م).

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، حررت أجزاء أخرى من أفريقيا العربية بقيادة عبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر ومروان بن الحكم، وكانت هذه الأرجاء تحت الهيمنة الرومانية.

وفي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، أُصدر مرسوم بتعيين عقبة بن نافع والياً على أفريقيا في عام ٤٦ هـ (٦٢٦م)، فتم فتح تونس.

ثم توالت الفتوحات الاسلامية في أفريقيا العربية فوصلت تلمسان في المغـرب العـربي الأوسـط.. وفي عام ٨٦ هـ (٧٠٤م)، أصبـح موسى بن نصـير واليـاً على المغـرب، فقـام بنشر مبادىء الدين الاسلامي ونظم امور

تلك الـديـار، وشـرع في استكـمال الفتوحات الاسلامية في افريقيا العربية ـ شمال افريقيا ـ ففتح مدينة طنجة في المغرب، وجعل طارقاً بن زياد مسؤولاً عن القـوات الاسـلاميـة في هذه المنطقـة، فقام طارق بدوره في التحرك نحو شرق طنجة حيث مدينة سبتة الساحلية فتم فتحها.

لقـد وصلت الفتـوحـات العـربيـة الاسـلامية في افريقيا العربية إلى ذروتهـا تحت قيـادة موسى بن نصير في عام ٩٠ هـ (٧٠٨م)، وبذلك الفتح المبـين عُرِّب المغـرب وتحول إلى الاسلام تحولاً نوعياً وجذرياً، واصبح طابعه الأبدي المتميز هو العروبة والاسلام.

مرحلة الإنطلاق الأولى:

في مراحـل استكـمال الفتـوح في المغرب العربي، كانت أنظار العرب المسلمين تتجه نحو اسبانيا في العدوة الأخرى.

لقـد كانت اسبـانيا في تلك الحقبة أي الى الفتح العربي الاسلامي، دولـة مسيحيـة بالاسم فقـط، فقـد كانت آخر اقليم في نطاق الامبراطورية الـرومـانية متمسكة بالوثنية، ويبدو أنه تحت حكم القوط، لم يبذل أي جهد يذكـر لتحـويـل أهلهـا إلى المسيحيـة.. وكان سكانها قد تحملوا الكثير من الارهـــاب والتعسف وأقسى انـــواع الظلم، وعـــاشـوا تحت ظل العبـوديـة والاقطاع والفقر.

لذلـك كان من اليسـير عليهم، في تلك الظـروف التعيسـة والخانقة، أن يتلقـوا الـدين الاسـلامي بصـدد واسـع، ويجـدوا فيه ضالتهم المنشودة، ويرحبوا ترحيباً حاراً بالقادمين الجدد.

كان القـوط يحكمـون اسبانيا منذ عام ١٦٢ هـ (٤١٨م) حتى دخلها العـــرب في عام ٩٢ هـ (٧١١م)، وكـان مقـر بلاط ملوكهم في تولـوز، أمـا قاعدتهم في اسبانيا فكانت طليطلة.

ونستطيع القول إنه حتى القرن السادس الميلادي، لم يكن حكم القوط في اسبانيا قد دعم تماماً . وكان الملك يتولى العرش بطريق الانتخاب، وبعد ان استقرت الكاثوليكية في البلاد تقاسم الملوك الحكم مع الاكليروس - أي رجال الدين .

وكان اليهود فيها لا يعاملون بالحسنى بالرغم من انهم كانوا من دعائم الثروة والازدهار، ولذلك ساعدوا المسلمين على فتح البلاد وحكمها بعد ما أدركوا عدلهم وسماحة دينهم .

وحانت الفرصة في عام ٩٠ هـ (٧٠٩م) حينما اتصل ابن أحد ملوك القوط في اسبانيا بالعرب المسلمين وعرض عليهم مساعدته إذا اعادوا العرش لأبيه من مغتصبه لذريق .

وقام حاكم طنجة الكونت يوليان الرومي بالوساطة بين العرب والأمير القوطي، وبعد ان اعترف بالسيادة العربية الاسلامية وقدم لهم الولاء تم تعيينه حاكماً على سبتة .

وصلت بعثة يوليان إلى طارق بن زياد حاكم طنجة المسلم، وبعد ان تحدث مع المبعوثين، أرسلهم إلى رئيسه موسى بن نصير في القيروان، وسرعان ما أذن له الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك باعداد حملة عسكرية لفتح اسبانيا، فتم تجهيزها من العرب والبربر.

وفي عام ٩١ هـ (٧١٠م) طلعت حملة استكشافية مؤلفة من البربر لاستطلاع وريادة المنطقة التي سوف تنزل فيها الحملة، وللتعرف على أحوال مسالكها وطبيعة بلادها، والمعروف ان هذه الطليعة كانت بقيادة طريف .

وفي العام التالي أي في ٩٢هـ (٧١١م)، كان القائد طارق بن زياد وبصحبته يوليان الرومي قد نزلا إلى البر الاسباني عند جبل طارق، ثم اتجه الجيش من الجنوب إلى الشمال.

«لقد كان ذلك الفتح المبين في شهر شعبان سنة ٩٢ هـ ، حينما ركب طارق بن زياد السفن في سبعة آلاف من المسلمين، جلهم من البربر. . وبينما هو في عرض المضيق، على رأس سفينته يتأمل عجائب الكون، ويتوجه بقلبه إلى الله عز وجل يتلمس منه العون، ويسترجع في مخيلته سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وما لاقاه في سبيل نشر الرسالة الاسلامية من محن وآلام، إذ اخذته سنة من النوم، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم، وحوله المهاجرين والانصار قد تقلدوا السيوف، وتنكبوا القسي، فيقول له صلى الله عليه وسلم: يا طارق، تقدم لشأنك، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه. . فيهب طارق مستبشراً وقد طابت نفسه بالبشرى ولم يشك في النصر.

القت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء عن جبل ـ كالبي Calpe ـ الذي حمل اسم طارق إلى اليوم، فسمي ـ جبل طارق Gibraltar ـ.

كان الملك لذريق مشغولاً بثورة أخيلا في شمالي اسبانيا، ولما علم بنزول العرب في أرض اسبانيا ادرك ما يحدق به من خطر، فجمع جيشاً جراراً بلغ سبعين الفاً في رواية، وفي رواية اخرى مائة ألف.

تابع طارق سيره باتجاه قرطبه، عاصمة اقليم «بيتس» متخذاً طريق الساحل سبيلاً له، فادرك جزيرة طريف، ومن ثم اتجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع، ومر بين جبلين، واقترب من بحيرة الخندق ـ لاختدا ـ الواسعة التي تحصر بينها وبين جبل ـ سيرادل رتين ـ سهلاً متسعاً بعض الاتساع حصيناً، لأن البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى. . واستمر حتى ادرك بحيرة البرباط، وكانت بهذا الموضع في تلك الايام بلدة صغيرة اسمها ـ بكه ـ، ولهذا سمّوا هذا النهر ـ وادي بكه ـ، حرف فيما بعد إلى ـ لكه ـ أو وادي لكه ـ.

وهنا عرف طارق عن طريق عيونه، ان لذريق سائر اليه في جنده،

وانه واصل إلى قرطبه، واستقر بها قليلاً، ثم تقدم جنوبها، وضرب معسكره عند شذونة، واستعد للموقعة في سهل البر باط . .

وحتى هذه اللحظات كان مع طارق سبعة آلاف فقط، فبعث يطلب المدد من موسى بن نصير، فعجل موسى بارسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم طريف بن ملوك، وفيهم عدد عظيم من العرب، فادركوا طارقاً قبيل اللحظة الحاسمة، وقويت بهم نفسه، ونفوس من معه.

رأى المسلمون جيش لذريق، وقد بلغ مائة ألف بكامل العتاد، ورأى ذلك طارق أيضاً، فلم يزدد إلّا حماسة واستبسالاً . . فقام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، والقى عليهم خطبته الخالدة التي حثهم فيها على الجهاد»[1].

قال طارق في خطبته :

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلّا الصدق والصبر، واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزَر لكم إلا سيوفكم»[2].

دارت بعد ذلك معركة وادي لكه الحاسمة التي بدأ القتال فيها يوم الاحد، الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ (٧١١م)، لقد كانت المعركة مدروسة بعناية فائقة من قبل طارق، فقد اختار مكان المعركة استناداً إلى دراسة حكيمة وتخطيط عسكري أمثل، وفرض أيضاً الموقع ـ أي مكان المعركة ـ على خصمه لذريق أيضاً الذي لقي مصرعه في هذه الموقعة.

لقد حسمت المعركة لصالح الجيش العربي الاسلامي، فقد حددت مصير الأندلس لمدة ثمانية قرون قدم فيها العرب خلاصة ابداعاتهم وعظيم انجازاتهم الخالدة على امتداد العصور.

---

١ ـ فتح الاندلس ـ شوقي أبو خليل، ص ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ .

٢ ـ نفح الطيب للمقري ـ الجزء الاول، ص ٢٢٥ .

بعد ذلك اتجه الجيش العربي الاسلامي شمالاً حيث فتح قرطبة ثم استولى على طليطلة[1] في أيلول عام ٧١١م، وبعد طليطلة استمر طارق في مساره في اتجاه شمالي شرقي حتى بلغ الكالا دانيارس (قلعة عبد السلام)، وهناك أتاه أمر رئيسه موسى بن نصير بأن يعود إلى طليطلة، وينتظره فيها.

سار موسى بن نصير من الجنوب إلى اشبيلية، فاستولى على باجه ويابرة، ثم على ماردة بعد قتال وحصار طويلين، ثم تقدم ووصل طلبيرة (تالا فيرا دي لارينا)[2]، وفي ذلك المكان لقيه طارق واسلم له قيادة الجيش.

وفي ذلك الحين أعلن موسى ان الحاكم الشرعي لاسبانيا هو خليفة المسلمين في دمشق، ثم سارا معاً، ففتحا سرقسطة، واتجها شمالاً بغرب مع نهر ابرو، ففتحا قلهرة، وبنبلونة، ثم أماية ثم خيخون، فاتما بذلك فتح شبه جزيرة ايبريا[3] كاملة، وتركا حامية قرب خيخون، وعادا إلى طليطلة، ورجعا منها بأمر من الخليفة الاموي إلى شمال افريقيا، ثم استدعيا لمقابلته في دمشق عام ٩٥ هـ (٧١٤م).

تولى قيادة الجيش بعدهما عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي أصبح والياً على بلاد الأندلس نيابة عن ابيه، فأتم ما بقي من شرق اسبانيا وفي غربها، فاستولى على مالقه، وقطاع البيرة ـ غرناطة اليهود، ووقعت في قبضته لبلة (نيبيلا)، ويابرة (ايغورا)، وشنترين (سانتاريم) في البرتغال.

لقد شكلت هذه الحقبة الزمنية، مرحلة الانطلاق الاولى في موجة الفتح العربي الاسلامي للأندلس، ولم تستغرق سوى أربع سنوات وعدة أشهر (٧١١ ـ ٧١٥)، وصل العرب فيها إلى جبال البرانيس الفاصلة بين

---

١ ـ تقع جنوبي غرب مدريد.

٢ ـ تقع جنوبي غرب طليطلة.

٣ ـ تضم شبه جزيرة ايبريا: الأندلس واسبانيا والبرتغال.

اسبانيا وفرنسا . . وقد استعاد الاسبان هذا الاقليم الذي فتحه العرب في سنوات قلائل، استعادوه في ثمانمائة سنة .

وفي اعقاب فترة الانطلاق الاولى (فترة الفتح) التي استغرقت أربع سنوات وعدة أشهر، جاءت مرحلة اخرى امتدت قرابة اربعين سنة (١٥ - ٧٥٥) كانت الاندلس خلالها ولاية تابعة لدمشق مركز الخلافة الأموية، ومع ذلك فقد انحسر ملك العرب خلاله قليلاً .

الدولة الأموية في الاندلس:

«في سنة ثمان وثلاثين ومائة كان دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي إلى الاندلس، واستولى عليها وامتدت ايامه، وبقيت الاندلس في يد أولاده إلى بعد الأربعمائة، وكان عبد الرحمن هذا من أهل العلم والعدل، وامه بربرية»[1].

لقد أنشأ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) امارة في قرطبة عام (٧٥٦م)، بعد رحلة شاقة جاب خلالها اقطار شمال افريقيا حتى وصل إلى سبتة ومنها أوفد مساعده بدر ليكشف عن احوال الأندلس وليرى إذا كان سيلقى التأييد من الزعماء العرب أم انهم سيصدونه .

ومن حسن حظه ان مهمة بدر كللت بالظفر، فأسرع بالاتصال بالأمير عبد الرحمن بن معاوية للقدوم إلى الوطن الجديد، وبعد أيام رست سفينته عند مدينة مالقة الساحلية حيث خرج إلى الميناء بعض الزعماء للمشاركة في استقباله، وفي العام التالي (٧٥٦م) حصل على ولاء قادة العرب والبربر كافة .

بهذا الشكل شاءت الأقدار بعد مرور ست سنوات على سقوط

---

١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي - ص ٢٦٠ .

الخلافة الأموية في دمشق، ان نهض احد أفراد الاسرة الاموية نفسها ـ بعد ان قضى العباسيون عليها ـ فشيّد صرح دولة عربية جديدة دامت سيادتها ٢٥٠ سنة كانت قاعدتها في قرطبة ثم اشبيلية فغرناطة.

لم يتخذ عبد الرحمن الداخل (٧٥٥ ـ ٧٨٨) لنفسه لقب الخلافة، بسبب وجود الخليفة العباسي، بل اكتفى بلقب الأمير، أما لقب الخليفة، فقد اتخذه عبد الرحمن الثالث الناصر بعد مرور مائتي عام تقريباً على وصول عبد الرحمن الداخل.

ونهض بعد عبد الرحمن الأول سبعة امراء يعرف عنهم بأنهم خيرة من عرف العرب والمسلمون من حكام من نواحي الكفاءة والعدل والحزم، كان منهم هشام بن عبد الرحمن (٧٨٨ ـ ٧٩٦)، فالحكم بن هشام (٧٩٦ ـ ٨٢١)، فمحمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ ـ ٨٨٦)، والمنذر بن محمد (٨٨٦ ـ ٨٨٨)، وعبد الله بن محمد (٨٨٨ ـ ٩١٢)، ثم تولى عبد الرحمن الثالث الناصر، ويعتبر من أعظم الحكام الذين عرفتهم الدولة العربية الاسلامية في الأندلس.

لقد اصبحت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث درة العالم وحاضرة العلم والابداع، وكان عبد الرحمن الناصر أول مسؤول أندلسي يتخذ لقب (الخليفة) وذلك في عام ٩٢٩م وتسمى بـ (الناصر لدين الله)، ومنذ ذلك الحين أصبح في العالم الاسلامي ثلاث خلافات: العباسية في بغداد، والفاطمية في القاهرة، والاموية في قرطبة.

ولما توفي عبد الرحمن الناصر عام (٩٦١م)، تولى الحكم من بعده الحكم بن عبد الرحمن المعروف بالمستنصر (٩٦١ ـ ٩٧٦)، ثم هشام بن الحكم المعروف بالمؤيد (٩٧٦ ـ ١٠٠٨) ولما كان غلاماً صغيراً حينما تولى الأمر، سيطر واحد من رجال الدولة وهو محمد بن أبي عامر على الحكم، واستطاع ان يجعل من نفسه الحاكم الفعلي، وتلقب بالمنصور، وقد تمكن

من توسيع رقعة الاسلام في الاندلس[1] فتخطت نهر دويره، وارتفعت إلى شماله عند نهر المينو، وضمت جزءاً كبيراً من امارة نافار (نبرة)،.

ولما توفي المنصور خلفه اثنان من ابنائه ثم اخوه عبد الرحمن، وفي أيام هذا الأخير ثار الأندلسيون، وبدأت فتنة أهلية، وتعاقب على موقع الخلافة في أثنائها عدد من الخلفاء[2] من بني امية أولاً، ثم من اسرة تعرف ببني حمود، ثم استردها بنو امية، حتى إذا تولى آخر بني أمية الأندلسيين، ويسمى هشاماً بن المعتد، كان اهل قرطبة قد سئموا الفوضى..

«لقد اجمع رأي أهل قرطبة على رد الأمر إلى بني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن العمر ابن يحيى بن عبد الغافر بن ابي عبدة، وقد كان ذهب كل من كان ينافس في الرياسة ويُخبُّ في الفتنة بقرطبة، فراسل جهور ومن معه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الأمور، وداخلهم في هذا، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وهو اخو المرتضى المذكور، قيل: كان مقيماً بالبونت عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم المتغلب بها، فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة واربعمائة، وتلقب بالمعتد بالله، وكان مولده سنة اربع وستين وثلاثمائة، وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام، وامه ام ولدٍ اسمها عاتب، فبقي متردداً في الثغور ثلاثة أعوام غير شهرين، ردارت هناك فتن كثيرة، واضطراب شديد بين الرؤساء بها إلى ان اتفق أمرهم على أن يصير إلى قرطبة قصبة الملك، فصار ودخلها يوم منىً ثامن ذي الحجة سنة عشرين وأربعمائة، ولم يبقَ إلا يسيراً حتى قامت عليه فرقة من الجند، فخلع،

---

١ ـ رحلة إلى الاندلس ـ د. حسين مؤنس، ص ٢٥ ـ ٢٦.

٢ ـ منذ هذه الفترة المشؤومة في حوالي ٤٠٠ هـ (١٠١٠م) بدأت مرحلة الفتن والانقسامات المؤسفة، والتي ادت بطبيعة الحال على مر الأيام إلى ضياع كيان العرب والاسلام في الأندلس.

وجـرت امـور يكثـر شرحهـا، وانقطعت الـدعـوة الأمـويـة من يومئذ فيها، واستولى على قرطبة جهور بن محمد المذكور آنفاً، وكان من وزراء الدولة العـامـريـة»[1] وهكذا الغيت الخلافة الاموية في قرطبة واستولى على الحكم بعـد عزل آخـر الخلفـاء الامـويين هشام بن المعتد، استولى جهور بن محمد ويعد موت جهور «تولى أمرها بعده ابنه ابو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير، إلى أن مات، فغلب عليها بعد امور جرت هنالك، الأمير الملقب بالمأمـون صاحب طليطلة، ودبـرها مدة يسيرة، ومات فيها، ثم غلب عليها صاحب اشبيلية الأمير الظافر بن عباد، فهي الآن بيده على ما بلغنا، وبقي هشام بن المعتد معتقلاً، ثم هرب ولحق بابن هودٍ بلا رِدَة. فأقام هناك إلى ان مات سنة سبع وعشرين واربعمائة، ولا عقب له وانقطعت دولة بني مروان جملة، إلا ان أهـــل اشبيليـة ومن كان على رأيهم من أهـل تلك البـلاد، لما ضيق عليهم يحيى بن علي الحسني وخافوا أمره، أظهروا ان هشام بن الحكم المؤيـد حي وانهم قد ظفـروا به فبـايعوه، واظهروا دعوته، وتابعهم اكثر أهل الأندلس. وبقي الأمر كذلك إلى حدود الخمسين وأربعمائة، فإنهم اظهروا موت هشـام المؤيـد الذي ذكروا انه وصل اليهم وحصل عندهم، وانقطعت الخطبـة لبني امية من جميع أقطار الأندلس من حينئذٍ وإلى الآن»[2].

لقـــد بدأت مرحلة الاضطـرابـات والتنـاحـرات منـذ عام ٤٣١هـ (١٠٣١م)، وكـان انهيـار الخـلافـة الاموية، لتؤول السلطة إلى حكومة في قرطبة اشبه بحكومات البلديات. . لقد تطاحنت على مقاليد الامور خلال هذه الفتنـة الكـبر ى طوائف شتى، وعلى اثر ذلك بدأت تتجلى مؤ شرات السقــوط والتصـــدع، حيث جُزأت البـــلاد وسـاد الانحـلال، فانقسمت

---

١ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي ـ ص ٢٧ ـ ٢٨.

١ ـ جذوة المقتبس للحميدي، ص ٢٩ ـ ٣٠.

الانـدلس إلى امـارات مبعثرة هنا وهناك، تعادي كل واحدة منها الاخرى، وهذا ما يعرف في التاريخ الأندلسي باسم عصر ملوك الطوائف.

ولم يلبث بعض هذه الامـارات أن صارت لجيرانهـا، ومن ثم ابتلعت من قبـل القـوط الاسبـان الـذين كانـوا يتربصون بأملاك المسلمين منتهزين فرصة تفرقتهم وولاءاتهم المتعددة.

ملوك الطوائف:

في اثنـاء فترة ضعف الخـلافة في قرطبة، استغل بعض امراء الاسبان في الشـمال هذه الفـرصـة، فوسـع كل منهم رقعتـه على حساب المسلمين، فانحدرت حدود الأندلس إلى نهر تاجة، فيما عدا الناحية الشرقية، إذ بقيت حدود الأنـدلس هنـاك في حوض نهر ابـرو، أي أن الأنـدلس لم يعـد يشمل سوى نصف شبه الجزيرة.

لقـد بدأت الاستغـاثـات حين بدأت تتساقط الحصون الاسلامية في أقصى الشـمال الاسبـاني، وبدأت بشكل وعظ وارشاد حينما كانت المأساة في بدايتهـا، لقـد كان المفكرون والادباء الاندلسيون يشخصون الأسباب التي أدت إلى النكبـات التي بدأت تحل بالمسلمـين في الانـدلس، ويـدعون إلى تجنب اسبــاب النكسـة والهـزيمـة، ويحثـوهم على الشجـاعـة والـوحـدة والتـماسـك، فما ان سقطت الخـلافـة الامـويـة إلا والتمزق بدأ يأخذ اطواراً اوسع من الأول وظهر على ذلك ملوك الطوائف يتناحرون فيما بينهم.

ومن ممالـك الطـوائف التي ظهـرت بعـد سقـوط الخلافة الاموية (بنو زيـري) وهـم طائفـة من الـبربر استقلوا بغرناطة، و(بنو حمود) استقلوا بمالقه وقرطبة، و (بنو هود) وهـم عرب كانت دولتهم في سرقسطة، و (بنو عامر) في بلنسية، و (بنو عباد) وهـم عرب وكانت دولتهم في اشبيلية، و (بني الافطس) وكانت دولتهم في بطليموس، و (بني جهور) وكانت دولتهم في قرطبة، ودولة

(بني ذا النون) في طليطلة، وكانت الحرب سجالا بين هذه الدويلات . .

وقد استمر عصر ملوك الطوائف من ٤٣٠ ـ ٥٣٦هـ (١٠١٢ - ١١٤١م) وجاء بعد ذلك عهد المرابطين.

في عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥) استولى الفونسو السادس ملك قشتالة وليون على اكبر ممالك الطوائف، وهي طليطلة، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الأندلس يشمل إلا ثلث شبه الجزيرة فقط، ان ذلك كان دليلاً واضحاً على تربص العدو بالمسلمين منتهزاً فرصة انشغالهم بخلافاتهم، فأخذ يجمع قواه ويعد العدة لابتلاع أراضي المسلمين.

لقد أدرك الأندلسيون الخطر فاستنجدوا بأشقائهم أهل المغرب، وكانت دولة المرابطين قد نهضت في افريقيا العربية، وسرعان ما أقبل رئيسها يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش لنجدة ملوك الطوائف في الأندلس المنقسمين على بعضهم، فهزم الملك الفونسو السادس في معركة الزلاقة[1] في ٢٣/ ١٠/ ١٠٨٦، وكان ايضاً من معارك المرابطين الظافرة في الاندلس، معركة قليش ١١٠٨/٥/٣٠، ومعركة افراغة ١١٤٣، وابطال تلك المعارك الباسلة هم: يوسف بن تاشفين في الزلاقة، وتميم بن يوسف بن تاشفين في اقليش، ثم يحيى بن غانية في افراغة.

المرابطون:

وهم فرقة سياسية دينية بدأت دعوتهم من رباط وهي أماكن تقام للعبادة ولذا دعوا بالمرابطين، وقد تطورت هذه الحركة بحيث اقامت دولة اسلامية قوية مترامية الاطراف ضمت إليها الأندلس، وقد استمر حكم المرابطين في الأندلس في الفترة (١٠٥٦ ـ ١١٤٦م).

---

١ ـ الزلاقة: مدينة تقع حالياً في دولة البرتغال قرب حدودها مع اسبانيا.

نشأ المرابطـون في صنهـاجة، ثـم قامت دولتهم اولاً في المغرب، ويرز فيها يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش.

وعندما بدأ امراء الاسبان ينتهزون فرصة التهاء العرب بالانقسامات والتنـاحـرات أخـذوا يحتلون المنـاطق الاسـلاميـة في عهـد ملوك الطوائف، استنجـد ملوك الطـوائف بالمـرابطـين وبـرئيسهم يوسف بن تاشفين، فوقف على ضعفهم والحق بلادهم بمملكتـه وعـاد إلى فاس في المغـرب واتخـذها عاصمـة ملكـه، ولمـا توفي في عام ١١٠٦م، خلف دولـة عظيمة امتدت من المحيط الاطلسي إلى الجزائر، ومن السنغال إلى نهر الأيبر.

الموحدون:

وقعت غرنـاطـة تحت حكم المـرابطـين بعـد ازالتهم أسرة الزيريين، فنـصب هؤلاء من قبلهم الحكـام من عام ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م) إلى ٥٥١ هـ (١١٦٦م) حينما سقطت في يد الموحدين.

وكـان أول مرابطي في غرنـاطـة إسمه أبو محمد عبد العزيز، وجاء من بعده الامير يحيى بن وسينو.

وعلى مر الأيـام ضعف أمـر المرابطـين، وقـام عليهم المـوحـدون في المغـرب، فثـار نفـر من الانـدلسيـين، وعـادت الفتنة مرة ثانية، وفي أثنائها أستولى ملك أراغون على الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة في عام ١١١٨م، وبهذا اصبح الاندلس لا يشمل سوى ربع شبه جزيرة ايبريا.

والمـوحـدون فرقـة سيـاسيـة دينيـة قامت دولتهم على أنقـاض دولـة المرابطين في المغرب والأندلس، بل كانت أعظم شأناً.

ويستمـد المـوحـدون تسميتهم من توحيد الله سبحانه وتعالى والعودة إلى جوهـر العقيـدة الاسـلاميـة، وقـد استمر حكم الموحدين خلال الفترة (١١٢٩ - ١٢٦٨م).

في عام ١١٥٠ عبر الموحدون إلى الاندلس لنصرة دين الله، ويعملوا على الحفاظ على ما بقي من أرض المسلمين في الأندلس، ونجحوا فترة قصيرة، فانتصروا على الاسبان في معركة الأرك ١٩/٧/١١٩٥.

وفي خلال الصـراع بين المـرابطـين والمـوحـدين سقطت عدة مدن اسلامية بأيدي الاسبان، منها: طرطوشه (١١٤٨)، ولاردة (١١٤٩)، وقلعة رباح ـ كالاترافا (١١٥٧)، والمنطقة التي تقوم عليها حالياً دولة البرتغال (١١٥٧ ـ ١١٧٧)، ثم جيان (١٢٣٢).

وفي عام (١٢٣٦) سقطت قرطبة عاصمة الاندلس كله، ثم بلنسية (١٢٣٨)، ثم مرسيـه، فكل شرق الأنـدلس حتى مالقـة (١٢٤١)، ثم سقطت اشبيلية (١٢٤٨)، وتبعتها شذونة، واركش، وقادش.

وفي وسط هذا السيل العدواني وهـذه المحن والمصائب التي أحاقت بالعرب والاسلام قاوم الفقهاء والمجاهدون هذه الأعمال الشريرة الباغية ـ مثلما فعل زملاؤهم في المشرق العربي أمام ضربات الصليبيين في البلاد المقدسة، فحملوا راية الجهاد، واستشهدوا في سبيل الله، وكان منهم ابو الربيع سليمان بن سالم وكانت سنه قد تجاوزت السبعين، وظل في المعركة يقاتل والسيف في يده حتى استشهد في قفار المنشا على مقربة من حصن صغير، كان يعرف بالبسيط[1]. ومن الشهداء ايضاً البطل أبا علي الصدفي الذي روى بدمائه العطرة أرض البطولات والأمجاد.

يذكر الدكتور حسين مؤنس في كتابه (رحلة الاندلس) أنه في وسط هذا الطوفان، استطاع فارس عربي اندلسي هو محمد بن الأحمر ان يعتصم في غرناطة وما حولها حتى وادي آش في الغرب، ومالقة في الشرق، ثم قام بانشاء امارة عربية تجمعت فيها جماعات من المهاجرين المسلمين من البلاد التي سقطت، وحصّن هذه النواحي والأرجاء تحصيناً منيعاً، واستطاع ان

١ ـ د. حسين مؤنس ـ رحلة إلى الاندلس، ص ٢٣١.

يصمد لهجمات الممالك الصليبية ابتداءاً من عام ١٢٣١م، وفي هذا القطاع الجنوبي صمدت مملكة غرناطة الاسلامية قرنين ونصف القرن حتى قضي عليها في ٢/١/١٤٩٢م.

هكذا كانت نكسة العرب في الأندلس بعد ثمانمائة عام..

إنها لمحنة قاسية حقاً ونكسة شديدة الوطأة أن يُسدل الستار على حقبة زاخرة بالعطاء والأنجاز بهذا الشكل المأساوي.

في زمن موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى كانت السيادة العربية قد شملت شبه جزيرة إيبر يا كلها، وفي عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر كانت حدود الدولة العربية الاسلامية تصل إلى نهر دويرة، ثم تتصل مع حوض نهر ابرو. وفي عصر ملوك الطوائف انحدر إلى مجرى نهر آنه.. وفي عصري المرابطين والموحدين لم تتعد الحدود نهر الوادي الكبير، فيما عدا الناحية الشرقية التي ظلت كاملة تقريباً بأيدي المسلمين حتى عام ١١١٨م أي إلى وقت سقوط سرقسطة، وفي عصر بني الاحمر - ملوك غرناطة، انحصر الأندلس جنوبي نهير من نهيرات الوادي الكبير يسمى نهر شنيل، وعلى نهير من نهيرات هذا الأخير يسمى حدارة (دارو) قامت غرناطة ودخلت في الأندلس العربي الاسلامي كافة الجزر المتوسطة القائمة في غربة المعروفة بالبليار، وقد خرجت هذه الجزر فيما بعد عن الأندلس بعد سقوط بلنسية عام ١٢٣٨ علي أيدي ملوك اراغون الواحدة تلو الأخرى، ثم ضاع الأندلس برمته واستردته اسبانيا على أثر سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢ المشؤوم.

◆

الفصل الثاني

العهد العربي الاسلامي في غرناطة

● إن الاسبان الذين دخلوا الاسلام، لم يندموا على فراق دينهم الأول، وانتقالهم إلى العقيدة الجديدة، فقد تحسنت ظروفهم من الناحيتين القانونية والاجتماعية، إذ انتقلوا من الرق إلى الحرية.

المستشرق الاسباني
آنخل جنثالث بالنثيا

تسمية «غرناطة» مشتقة من مصدر روماني وهو Granate، ويقصد به «الرمانة». . وسميت بذلك لكونها ذات طبيعة جمالية عالية لا تقدر بوصف تحيط بها الحدائق والمروج وبساتين الرمان الكثيرة المنتشرة حلوها، وقيل انها سميت كذلك لأنها تشبه الرمانة المشقوقة بموقعها وانقسامها على التلين، فتبدو منازلها الكثيفة وسط هذا المشهد كالرمانة المشقوقة.

لقد اجمع كل علماء التاريخ والآثار والجغرافية على جمال غرناطة وخصوبة سهولها، وهي تقع على الضفة اليمنى لنهر شنيل، أحد فروع الوادي الكبير، ويخترقها فرعه المسمى نهر هداره أو حداره (دارّو)، ويتم الالتقاء به عند جنوبي غرناطة.

تشرف غرناطة من الجنوب الغربي على سهل متسع اخضر هو المرج أو الفحص الذي يمتد غرباً حتى مدينة لوشة. . ومن الجنوب الشرقي تشرف على جبال «سيير انيفادا Sierra Nevada» أو جبل شُلير، التي تغطيها الثلوج.

لم تصل مدينة غرناطة إلى مكانتها التي شهرت بها كعاصمة للدولة العربية الاسلامية في الاندلس إلا في اوائل القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي، وذلك حينما ادرك بنو زيري الصنهاجيون[1]، ان سيادة غرناطة قد بدأت تهوي، فاتصلوا بوزير هشام الثاني، عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر يعرضون عليه خدماتهم، فكان الجواب ايجابياً. وسرعان ما رحلوا مع رجال قبيلتهم وانصارهم تحت زعامة زاوي بن زيري، ويشاء حسن الحظ ان تصبح هذه الجماعة بعد قليل أهم طوائف الجيش البربري الذي أنشأه بنو عامر، ولما مات عبد الرحمن سنشول، ناصروا قضية زعيم جماعة البربر في الأندلس وهو سليمان المستعين، وعملوا على أن يتولى الخلافة.

وقابل سليمان هذا الجميل بأن أقطع رؤساء اتباعه الاقطاعيات الكبيرة، وكان من أهمها اقطاع ناحية البيرة[2]، وقد اشتمل على الأراضي الغنية في وادي نهر شنيل وكذلك على الهضاب الصخرية المجاورة.

لقد اتفقت كل الآراء على جمال غرناطة وروعتها وخصوبة سهولها، وكان بنو زيري في مقدمة الذين ادركوا أهمية موقعها الحيوي والخصيب، ولاسيما اميرهم عبد الله، فلا عجب أن يتعاون الاندلسيون والبربر على تشييد واحياء مدينة غرناطة كل يبني له مسكناً، ثم آلت البيرة إلى الاهمال والاندثار.

فتح قطاع البيرة ـ غرناطة:

في أيام الفتح العربي الاسلامي للأندلس، ندب القائد موسى بن نصير ابنه عبد العزيز لفتح البلاد التي لم تخضع بعد له في شرقي الأندلس وليفانت.

---

١ ـ كان بنو زيري يحكمون في قلعة بني حماد، ثم في بجاية.

٢ ـ عرفت بهذا الاسم لانها استمدته من اسم المدينة المقدسة «البيرس»، ثم احتلت جارتها غرناطة أهمية المدينة القديمة، وقد بدأت ضاحية يسكنها اليهود.

لقد توجه عبد العزيز بن موسى إلى المناطق الشرقية من الاندلس، فلما كان في طريقه لاخضاع امارة مرسيه Orihnela احتل مالقة Malaga-Malga وقطاع البيرة ـ غرناطة.

وفي أعقاب ذلك تولى أبو الخطار الحسام ابن الضرار، امارة قطاع البيرة ـ غرناطة، واقطعه إلى أجناد دمشق السوريين، وكان شيوخ هؤلاء من المناصرين للأمويين الذين وقفوا إلى جانب الأمير الاموي عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وقاموا بمساندته على اتم ما يكون حينما نزل بأرض الاندلس للوهلة الاولى وهو يمهد لارساء دعائم دولة بني امية في الاندلس.

وفي تلك الحقب شهدت كورة البيرة نزاعاً دموياً وقع بين المولدين المخلصين للحكومة المركزية في الأندلس وبين العرب بزعامة سوار بن حمدون، وكان هذا في اثناء حصار منافسيه قصر الحمراء، لقد استطاع الخروج من قاعدته بحركة جريئة، وأجبر الأندلسيين على الفرار عقب معركة عرفت باسم «واقعة المدينة»، ومن ثم لجأ الجنود المهزومون في خدمة ابن حفصون، الذي جمع شمل بعض القوات وقصد البيرة ليستأنف المعركة في سهل شنيل، ودارت عدة معارك مظفرة وفاشلة.

استمرت هذه المنطقة تعرف بالبيرة أعواماً كثيرة لأهميتها المتفوقة على غرناطة. وكانت تلك حتى القرن التاسع الميلادي لا تتجاوز قرية كبيرة ذات أسوار تقع على الشاطىء الأيمن لنهر حدارة عند التقائه بنهر شنيل.

وكان غالبية سكان المنطقة من اليهود، وأقليتهم من المسلمين، وكانت تعرف بغرناطة اليهود.

وكان امام غرناطة نشز صخري على شكل هضبة مرتفعة عن مدينة غرناطة تطل على الضفة الغربية لنهر حدارة (دارّو)، قلعة قديمة سميت بالحمراء، وهي التي أصبحت بعد قرون قاعدة ملك بني الاحمر (بنو نصر) آخر سلالة الملوك العرب الذين حكموا الأندلس.

تصاعد دور غرناطة :

يعـود مولـد غرنـاطـة الحقيقي الى القـرن الحادي عشر الميلادي حينما تصـدعت وحـدة الأنـدلس على أيـام ملوك الطـوائف والامراء . . ومن بين هؤلاء كان قائد من المغرب اسمه زيري بن مناد، كان قد اتى مع نفر كبير من قومه الصنهاجيين، ثم وقعت الفتنة الكبرى أوائل القرن الحادي عشر، وقامت الحرب الأهلية الكبرى المؤسفة بين قادة جيوش الخلافة وبعد فترات متطاحنة لجأ زيري وابن أخيه حبوس إلى غرناطة واتخذها عاصمة له .

ويجعـل غرنـاطـة عاصمـة لبني زيري ، تمت عمليات تنظيم وتعمير وتجميـل غرنـاطـة ، فاعيـد بنـاء أسـوارها وأبراجها وبنيت المساجد والقصور وفتحت الشوارع .

وكانت غرناطة بني زيري تقوم في السهل الفسيح الممتد بين تلي غرناطة[1]، ولا يزال جزء من أسوار هذه المدينة العتيقة باقياً، وهو الجزء الذي يشتمل اليوم على باب البيرة، ثم باب المنية[2]، ثم بوابة الموازين .

وحينما تقابل كنيسة السلفادور فأنت في مكان مسجد غرناطة القديم .

لقد كانت أسوار غرناطة في تلك الأيام تصل إلى سفح الساكرومونتي (الجبـل المقـدس) وهـو جزء من تل البياسين، ومن هناك كان السور ينحرف شرقاً ماراً ببيت عربي قديم يعرف ببيت الجباس الذي تقوم فيه اليوم مدرسة الابحاث العربية في غرناطة .

وبعد سير السور قليلاً يتسلق السور سفح تل الحمراء حتى يصل إلى الهضبة التي تقوم عليها قصور الحمراء اليوم .

وعلى هذه الهضبـة وضـع بنـو زيري أساس تحصينات الحمراء التي ستصـل إلى ذورتهـا بفضل بني زيري . . وخلف هذه الأسوار قامت غرناطة

---

١ ـ غرناطة وقصر الحمراء ـ د. محمد توفيق بليع ، ص ٦٧ ـ ١٠٠ .

١ ـ مصرع غرناطة ـ شوقي أبو خليل، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

القـديمـة التي يرجـع الفضل في إنشائها إلى اثنين من العرب الصنهاجيين، هما حبوس بن ماكن (١٠١٩ ـ ١٠٣٨م)، وباديس بن حبوس (١٠٣٨ ـ ١٠٧٣م).

ولا تزال أطـلال قصـور بني زيـري قائمـة إلى اليـوم بالقـرب من دار الحباس حيث تقوم بقايا بعض دور عربية وبقايا الحمام الصغير.

كانت أهم أحـداث غرنـاطـة أثنـاء حكم بني زيري، حصار الخليفة المرتضى لها لطـرد الـزيـريـين منهـا بيـد أنـه مني بهزيمـة منكرة واضطر إلى الالتجاء إلى قادش.

وبعـد أن تحقق فوز الـزيـريـين غير المنتظر، دعمت الأسرة أحوالها، وعـززت من امكـانياتها، ولاسيما على أيام امارتي حبوس وباديس بمؤ ازرة الوزيرين اليهوديين صموئيل وابنه يوسف بن نجر الله.

وكـــان الأمـــير باديس قد بلغ من العمـــر عتيـاً، وزادتـه الأحـداث والتجـارب حنكـة وخـبرة ودهـاء، وكـان يحس دوامـاً ان هناك ما يهدد أمن امـارتـه، فأمر بانفاق الكثير من الأموال لدعم أسوار قصبة غرناطة لتتحصن أمـام أي هجـوم قد يقـع ويقـوم به المتر بصين بها، أورعاياه المكبوتين عندما يرفعون لواء التمرد والعصيان.

غرناطة المرابطين:

وعنـدمـا حكم عبـد الله بن بلكـين حفيـد باديس، وهـو آخـر حكام الزيريين، الذي بدأ حكمه وهو في سن الطفولة، حدث حادث آخر يتصل بغرناطة، وما كاد يصل إلى سن الشباب حتى بدأت المؤ امرات والدسائس تحاك ضده من قبل رجاله وحاشيته، بينما تتصاعد الحروب بينه وبين منافسيه من الامراء المسلمين المجاورين او الملوك المسيحيين.

ولم ينـج في نهايـة تلك الأحـداث الملتهبـة في داخل ملكه وخارجه من

مناوءة المرابطين الذين قدموا إلى الأندلس بطلب ودعوة من بعض امراء الطوائف الأندلسية.

فأخذ آخر حكام الزيريين يقوي من قدراته الدفاعية لصد الهجمات المتوقعة، فأخذ يشيد الحصون ويدعم الأبراج، ويقوي الأسوار المتصلة بقصبة غرناطة لكي يرد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين.

ولكن ماكاد المرابطون يصلون اسوار المدينة حتى نصحه الوزراء وامه ان يقلع عن المقاومة فاستسلم لرأيهم، وخرج من القصبة على رأس رجاله واستقبل يوسف بن تاشفين، وأمر بفتح أبواب غرناطة، ثم قدم له الكنوز التي احتوتها القصبة هدية للأمير المرابطي، وكان ذلك في عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م)، وأخذ عبد الله بن بلكين أسيراً إلى أغمات في المغرب، فانتهى ملك بني زيري من غرناطة واصبحت المدينة منذ ذلك الحين مع اقليمها تكون جزءاً هاماً من أملاك المرابطين في الأندلس شأنها شأن غيرها من مناطق الأندلس الجنوبية.

وبقيت المدينة تحت ولايتهم حتى عام ٥٥١ هـ (١١٦٦م) حينما آلت إلى حكم الموحدين، وفي ظل حكم المرابطين كبرت غرناطة وتوسعت وازداد عمرانها حتى أصبحت أيامهم وفي أيام الموحدين من بعدهم حتى القرن الثالث عشر الميلادي من أهم وأكبر مدن الاندلس، فاتخذها بذلك الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف والي البلاد زمن شقيقه الأمير علي بن يوسف مقراً له.

لقد كان اول حاكم من حكام غرناطة المرابطين، أبا محمد عبد العزيز، وخلفه الأمير يحيى بن وسينو من أقرباء يوسف بن تاشفين، وجاء من بعده أبو الحسن بن الحجيج الذي هاجمه الفونسو السادس وانتصر عليه واستشهد أبو الحسن في المعركة وتولى الحكم بعد شقيقه أبو الحسن وهو محمد بن الحجيج الذي جاء على رأس قوات غرناطة لنجدة والي اشبيلية، وكانت مقاطعته قد هددها مرة اخرى الفونسو السادس، وعلى مقربة من اشبيلية

عند المقاطع اجبر على التقهقر بعد ان اوقعت بجيشه الخسائر الفادحة.

وفي العام التالي يقابلنا أبو بكر بن يوسف في توليه زعامة المرابطين فلم يسانده أهل غرناطة فتم القبض عليه وارسل إلى مراكش، وعلى اثر تلك المقاومة الفاشلة جاء علي بن يوسف الى الاندلس لينقضيا على أثر المقاومة الفاشلة، وكان قد عين شقيقه تميم بن يوسف والياً على غرناطة.

وفي هذه الفترة لعبت غرناطة دوراً هاماً خلال الحملة التي بدأها الفونسو الأول الغازي ملك اراغون ضد أملاك العرب المسلمين في عام ١١٢٥م، واستمرت خمسة عشر شهراً تمكن خلالها بمعاونة نزلاء غرناطة من المستعمرين، ان ينشر الذعر والدمار والخراب في أملاك المسلمين، كما قام بشن عدوان على غرناطة وضرب الحصار عليها، وكاد يقتحمها لولا قوة تحصيناتها وشجاعة المدافعين عنها، والمدد الذي وصلهم من المغرب، حيث قدم المغرب كافة أشكال الدعم والاسناد لأشقائه في غرناطة في سبيل نصرة الله ودينه.

وبذلك اضطر اتباع الفونسو إلى رفع الحصار عن غرناطة ومتابعة حملاتهم العدوانية في المناطق الأندلسية الاخرى في الجنوب، حتى وصلت جيوشهم إلى مدينة أرينسول جنوبي غرناطة وعندها نشبت معركة كبيرة بين قوات الفونسو وقوات الأمير تميم بن يوسف التي كانت تتعقبه، إلا ان ملك اراغون انتزع النصر في النهاية من اعدائه الذين التهوا بعد تفوقهم في الضربة الاولى في عام ١١٢٦. وفي أعقاب تلك الهزيمة اعفي تميم من منصبه في غرناطة وخلفه أبو عمر، اكبر احفاد يوسف بن تاشفين وكان والياً على فاس.

ولم يستقر ابو عمر طويلاً في موقعه فقد اقاله علي بن يوسف في عام ١١٢٨ واجبر على العودة إلى مراكش.

وكان والي غرناطة الجديد أبي حفص عمر بن علي بن يوسف الذي

خلع بعد أربعة أشهر . وكان آخر ولاة المرابطين على غرناطة علي بن أبي بكر ابن شقيقة يوسف بن تاشفين .

اتسع العمران في غرناطة اتساعاً واسع الناطق في زمن الموحدين ، فقد بلغت مساحة المدينة المسورة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي حوالي خمسة وسبعين هكتاراً ، وكانت تضم أكثر من أربعة آلاف واربعمائة دار ، يقيم فيها أكثر من ستة وعشرين ألفاً واربعمائة نسمة . . ثم جاءت الأيام التي اشتد فيها هجوم الاسبان القوط على الموحدين فلم يستطيعوا عمل شيء . . والأثر الوحيد الباقي في غرناطة من عصرهم ، هو قصر صغير في أقصى غرب المدينة يسمونه اليوم قصر نهر شنيل واسمه الاصلي قصر اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن ، الذي ولاه الخليفة الموحدي المستنصر حكومة غرناطة في عام ١٢١٨ ـ ١٢١٩م . . فشرع في بناء هذا القصر ثم شيد في مواجهته رباطاً للعبادة ، ويعتبر هذا الرباط ذو قيمة عمرانية رائعة .

بنو الأحمر في غرناطة :

في الوقت الذي توالت فيه النكسات على بلاد الأندلس ، واخذت فيه القواعد العربية تتساقط الواحدة تلو الأخرى بيد الاسبان القوط ، قامت مملكة عربية اسلامية في غرناطة ، ارسى دعائمها واركانها محمد بن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الأحمر ، سليل بني نصر ، الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة رضي الله عنه ، سيد الخزرج في المدينة المنورة .

لقد كان محمد بن يوسف بن الأحمر ـ مؤسس دولة العرب والاسلام في غرناطة ، قوي الشخصية ، عالي الهمة ، واسع القدرات ، يمتاز بقدر عال من الفطنة ، كفاءته كبيرة في مجابهة الاحداث والتحديات والافادة من الاخطار ، وتحويل كل ذلك الى منطلق للنصر .

ولد محمد بن الأحمر في أرغونة بالأندلس في عام ٥٩٥هـ (١١٩٨م) .

وتهيأت له الظروف المناسبة لضم بياسة ووادي آش، وادانت له بالولاء جيان وشريش ومالقة وكثير من الحصون الشرقية والجنوبة، ذلك بعد أن ضعف الموحدون وقام عليهم ابن هود في الثغور الشرقية.

دخل اسلاف محمد بن الأحمر مع جيوش الفتح العربي الاسلامي، واستقر مقامهم عند حصن أرغونة شمالي غرناطة، ثم اخذت اسرة بني نصر هذه تتوسع وتزداد منذ ذلك الحين وتقوى حتى آلت زعامتها الى محمد بن الأحمر الذي عرف بالشيخ.

ومثلما ذكرنا آنفاً حينما تدهور وضع الموحدين واهتز نفوذهم في الأندلس في بداية القرن الثالث عشر الميلادي ولا سيما بعد انتصار الفونسو الثامن ملك قشتالة وحلفائه من ملوك اسبانيا القوط على محمد الناصر الخليفة الموحدي في معركة العقاب عام ٦٠٩هـ (١٢١٢م)، وجد عدد كبير من زعماء الأندلس فرصة لشق عصا الطاعة على الموحدين، فثاروا في مناطق شتى بالبلاد وحاولوا السيطرة على ماتحت أيديهم من أملاك الموحدين والاستقلال بها، وكان من بين هؤلاء محمد بن يوسف بن نصر، فنصبه أهل أرغونة مسقط رأسه في سنة ١٢٣٨م الذي ثار بدوره على الموحدين في مدينة مرسية واتخذها عاصمة لمملكته في شرقي الأندلس.

لقد خشي أهل غرناطة بعد مقتل اميرهم بن هود على مدينتهم من جيوش القوط التي كانت تضغط بقوة على أملاك المسلمين للسيطرة عليها، فاتصلوا بابن الأحمر اثناء وجوده في جيان، وبعثوا اليه بيعتهم والدخول في طاعته، فاستجاب لرغبتهم وانتقل الى غرناطة واتخذها منذ ذلك الحين مقاماً له وحاضرة لمملكته الجديدة[1].

«لقد قامت مملكة غرناطة في الآونة التي أخذت فيها قواعد الأندلس

---

١) غرناطة وقصر الحمراء — د. محمد توفيق بلبع، ص ٦٧ — ١٠٠

تتساقط بيد الاسبان، وذلك لسببين اثنين:

أولاً : أصبح الوادي الكبير شمالها حاجزاً طبيعياً بين الأندلس المسلمة واسبانيا.

ثانياً: قامت مملكة غرناطة قرب عُدْوة المغرب وشمال أفريقيا، حيث دول اسلامية تمد الأندلس وتنجدها في ساعات الحرج، فكلما اشتد الخطر في الأندلس جاء المدد من المغرب الشقيق[1]».

ومـاانتهت سنة ١٢٣٩م حتى استقر رأي محمد بن نصر على انشاء حصن يحتمي به، وبعد أن استطلع بنفسه المنطقة المحيطة بمدينة غرناطة، استقر في نهاية الأمر في منطقة السبيكة في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة حيث كانت توجد أطلال احدى القلاع القديمة.

وقام ابن الأحمر بوضع أساس حصنه الجديد في هذا الموضع المرتفع، وأطلق على هذا الحصن الجديد تسمية «قصبة الحمراء».

ثم أمر بإقامة البناء والعمل على اتمامه بسرعة فائقة، وبإطار جمالي وتقني عالي، وبريازة عربية اسلامية، وفي الوقت ذاته عمل على ايصال الماء لقصره، فأمر بعمل سد على نهر حدارة (DarrO) لتسحب منه المياه وترتفع الى حصن الحمراء بواسطة سواقي.

كان محمد بن الأحمر بن نصر من المقدرة القيادية بحيث قام بتوسيع رقعة الدولة العربية الاسلامية، فضم مدينتي مالقة والمرية وأحوازهما وشملت بعد ذلك مدينة لورقة شرقاً.

لقد واصل محمد بن نصر طوال فترة حكمه التي امتدت الى مايقرب من ست وثلاثين سنة بعد دخوله غرناطة (١٢٣٨ ـ ١٢٧٣) يناضل بهمة عالية لتحقيق اهدافه في تأسيس دولة قوية عظيمة، وقد خاض في سبيل ذلك معارك كثيرة وخاصة ضد بني مرين أصحاب المغرب للاستيلاء على املاكهم في المناطق الجنوبية من الأندلس، فانتصر عليهم في معارك كثيرة

وبذلك دعم مملكته وذاعت شهرته فيما جاوره من الأقاليم حتى وافاه الأجل في عام ١٢٧٣م، فخلفه ابنه محمد الثاني الفقيه (١٢٧٣ ـ ١٣٠٢م)، فاستكمل بناء القصبه ـ القلعة ـ، وأتم جانباً كبيراً من أسوار الحمراء.

تولى أمر المملكة من بعده ابنه أبي عبد الله محمد الثالث (١٣٠٢ ـ ١٣٠٨)، وكان من أعظم أهل بيته سمعة ونشاطاً، وكان شديداً وصارماً وقاسياً، فحيكت دسائس ومؤامرات جبانة ضده من قبل بعض أهالي غرناطة، فاقصي عن الحكم، ونصبوا شقيقه أبي الجيوش نصر، ودبرت ضده مؤامرة أودت بحياته حيث مات غريقاً عام ١٣١٠م بعد سنتين من خلعه، لكي لايفسر ظرف موته بأنه مدبّراً. . ويرجع الفضل إليه رحمه الله في بناء المسجد الجامع بالحمراء وتزيينه وتجميله، وقد ظل هذا المسجد قائماً حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر حينما ازيل في زمن الامبراطور فيليب ابن شارلكان، وبنى مكانه كنيسة سانت ماريا الحالية، كما شيّد الأمير محمد الثالث حماماً بإزاء المسجد وجعله وقفاً على المسجد، وقد تهدم هذا الحمّام وظلت أطلاله في مكانه أثراً باقياً تشهد على وجوده.

لقد تعاقبت على رئاسة الدولة العربية الاسلامية في غرناطة، بعد هؤلاء الأربعة الأوائل سبعة عشر حاكماً وهم:

٥ ـ أبو الوليد اسماعيل بن فرج ٧١٣ ـ ١٣١٣م.

٦ ـ محمد بن اسماعيل ٧٢٥ ـ ١٣٢٥م.

٧ ـ أبو الحجاج يوسف (الأول) بن اسماعيل ٧٣٣ ـ ١٣٣٣م.

٨ ـ محمد الغني بالله بن يوسف ٧٥٥ ـ ١٣٥٤م.

٩ ـ ابو الوليد اسماعيل بن يوسف ٧٦٠ ـ ١٣٥٩م.

١٠ ـ ابو سعيد محمود بن اسماعيل ٧٦١ ـ ١٣٦٠م.

١١ ـ ابو الحجاج يوسف بن محمد ٧٩٣ ـ ١٣٩١م.

١٢ ـ محمد المستعين بن يوسف ٧٩٧ ـ ١٣٩٤م.

١٣ ـ ابو الحجاج يوسف، الناصر بن يوسف ٨٢٠ ـ ١٤٠٧م.

١٤ ـ محمد، المتمسك بن يوسف ٨٢٠ ـ ١٤١٧م.
١٥ ـ محمد الصغير بن نصر ٨٣١ ـ ١٤٢٨م.
١٦ ـ ابو الحجاج يوسف بن محمد ٨٣٥ ـ ١٤٣١م.
محمد المتمسك بن يوسف (للمرة الثالثة) ٨٤٠ ـ ١٤٣٦م.
١٧ ـ محمد الأحنف بن عثمان ٨٤٨ ـ ١٤٤٤م.
١٨ ـ سعد المستعين بن علي ٨٤٩ ـ ١٤٤٥م.
محمد الاحنف بن عثمان (للمرة الثانية) ٨٥٠ ـ ١٤٤٦م.
سعد المستعين بن علي (للمرة الثانية) ٨٥٧ ـ ١٤٥٣م.
١٩ ـ ابو الحسن، علي بن سعد ٨٦٨ ـ ١٤٦٣م.
٢٠ ـ ابو عبد الله محمد بن علي (الصغير) ٨٨٧ ـ ١٤٨٢م.
أبو الحسن، علي بن سعد ٨٨٨ ـ ١٤٨٣م.
٢١ ـ محمد بن سعد الزغل ٨٩٠ ـ ١٤٨٥م.
أبو عبد الله (الصغير)، (للمرة الثانية) ٨٩٢ ـ ١٤٨٧م.
استيلاء فرويناند وايزابيلا على غرناطة ٨٩٧ ـ ١٤٩٢م.

لقد ساهم معظم اولئك الحكام المدرجين آنفاً، في إضافة وتجميل مباني الحمراء وبساتينها وخمائلها وقاعاتها، فأبدعوا في زخرفتها وريازتها وزينتها، حتى شكلت قيمة جمالية ابداعية عالية، وعنواناً لمدى التقدم الاقتصادي السائد في تلك الحقبة، والنعم الموفورة التي تهيأت لملوك غرناطة.

كما قام ملوك بني نصر ببناء السور التاريخي المحيط بتلّي الحمراء والبياسين ويسير مع السور الخارجي القديم نحو الجنوب ثم ينحرف شرقاً ويسير محاذياً للمجرى القديم لنهر حدارة مروراً بميدان الباب الملكي وينتهي عند مجرى نهر شنيل في الشرق.

لقد كان هذا السور الضخم مدعماً بأبراج صغيرة تعرف بالبرانيات، ولا تزال بعض بقاياه قائمة.. وكان الشارع الرئيس للبلد هو نفس الشارع

العام الحالي المسمى باسم فردناند وايزابيلا، وكانت الأسواق تقع الى غرب الشارع فيما يعرف اليوم بالقيسارية، وحول المسجد الجامع الذي كان، يقوم مكان الكاتدرائية اليوم، وكانت الأسواق تمتد الى مباني الجامعة الحالية. هنا أيضاً كانت الأحياء الشعبية، وكانت تمتد حتى تل البياسين بل وتشمله أيضاً.

أما الجانب الشرقي من مدينة غرناطة فقد اشتمل على أحياء الأمراء والأغنياء، وكانوا يسكنون دوراً فسيحة تحيط بها الحدائق والبساتين، وقد تحدث كثيراً لسان الدين بن الخطيب، وهو الطبيب والفيلسوف والكاتب والشاعر الغرناطي في كتابه «الاحاطة» عن معالم التقدم والعظمة اللذين بلغتهما غرناطة فأعطانا صورة لعصره انطبعت مظاهرها على حياة الناس وطرق معيشتهم في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان المستوى المعاشي لسكان دولة غرناطة عالياً جداً، حيث كان دخل الفرد الغرناطي مرتفعاً فبلغ المجتمع من الرخاء والترف شأواً كبيراً.

◆

الفصل الثالث

نهاية مملكة غرناطة

العجز ضيّع ملك أندلس
واليوم لا ملك ولا شمم

في حومة الصراعات والمنافسات بين بني نصر في غرناطة، واستفحال أمر تلك الخلافات فيما بينهم، كان الاسبان لايغمض لهم جفن في مجال التربص بالعرب للانقضاض عليهم واحتلال غرناطة . . .

وفي غمرة تلك الاحداث، قام محمد الفاتح بفتح الاستانة (القسطنطينية) عام ١٤٥٣م، لينتشر الدين الاسلامي في جنوب شرقي أوربا، فروعت أوربا لهذا الانتصار الاسلامي، واخذت تعد العدة للاعتداء على أهالي غرناطة، وكان بطبيعة الحال للخلافات الجانبية بين أفراد الاسرة العربية الواحدة دور كبير في تمكن الأسباب من النيل من غرناطة .

لقد سعت اسبانيا سعياً حثيثاً على طريق وحدتها، فتحقق ذلك على أثر زواج فرديناند حاكم اراغوان من ايزابيلا وريثة عرش قشتالة في عام ١٤٦٩م .

«كان فرديناند هذا رجل الفرصة السانحة يجنح في سياسته الى الغدر والابتعاد عن الوفاء، وكانت زوجته ايزابيلا تجيش بنزعة دينية متطرفة، وواقعة تحت تأثير أحبار متعصبين، وتنزل عند تحريضهم، وترتكب ابشع

الجرائم باسم المسيحية، والدين المسيحي منها براء. . وفي هذه الفترة كانت غرناطة غارقة في سلسلة الحروب الاهلية، وعلى عرشها أبو الحسن والد السلطان محمد بن سعد بن اسماعيل الملقب بالغالب بالله، الذي حاول تجديد الهدنة مع مملكة قتشالة، ولكن الملكين الجديدين رفضا ذلك الا بعد دفع جزية سنوية، فرفض أبو الحسن طلبهما، وزحف تواً الى قلعة الصخرة الواقعة غربي مدينة رندة وفتحها عام ١٤٨١م[١].

وبعد هذا الانتصار العربي سادت في ارجاء غرناطة الروح العالية والمعنويات المرتفعة وهي تؤكد رغبتها وعزمها على مواصلة الكفاح من أجل بلوغ سيادة غرناطة على كل الارجاء العربية التي يطمع بها الاسبان.

أما حاكم غرناطة (أبو الحسن) فقد اصابه الغرور للانتصار السريع، وخلد الى الركون والراحة فكان غروره وركونه هذا مؤشراً على السقوط. . .

وفي هذا الصدد يقول المقري صاحب نفح الطيب: «كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في الملذات، وركن الى الراحات وأضاعَ الأجناد، واسند الأمر الى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد والنظر في الملك، ليقضي الله تعالى ماشاء، وكثرت المغارم والمظالم، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه» .[٢]

لقد اقترن ابو الحسن بفتاة اسبانية يافعة على الرغم من سنه المتقدم، واسمها (ايزابيلا) وقد سميت فيما بعد بثريا، وكانت هذه جارية لدى أبي الحسن، وعرفت بالذكاء والدهاء، الأمر الذي ادى بها الى التدخل في شؤون دولة غرناطة، ويذهب بعض المؤرخين الى اعتبارها جاسوسة لصالح أهلها الاسبان.

كان للسلطان ولدان من ابنة عمه عائشة هما محمد ويوسف، وكنيا فيما

---

١ ـ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ـ الدكتور محمد عبد الله كنان ـ ص ١٤٢ ـ
٢ ـ نفح الطيب ـ المقري ـ ٥١٢/٤ .

بعـد بأبي عبـد الله محمـد (أبي عبـد الله الصغـير)، وأبي الحجاج يوسف، وتمثـل شخصيـة عائشـة الحـرة مكانة بارزة في أحداث سقوط غرناطة، نظراً للمواقف البطولية والباهرة التي وقفتها والتي تثير التقدير والاعتزاز.

امـا ايـزابيـلا تلك الفتاة الاسبانية التي قام الاسبان بدسها للسلطان الكهل لتكون زوجة له فقد انجبت ايضاً سعداً ونصراً اللذين تبرئا من دين أبيهـما فور معـرفتهما بأن غرناطة ستسقط بيد الاسبان، وقاما على اثر اغتيال غرنـاطـة بتغيـير اسميهما، فسمي سعد (ضون فرناندو) وسمي نصر (ضون خوان) فقد كانت ايزابيلا تحاول ان تكون الخلافة في أحدهما، وقامت بإبعاد عائشة الحرة ووصلت الوقاحة بها الى ان تزجها مع ولديها أبي عبد الله وأبي الحجاج في السجن المقام في برج قمارش وهو أمنع أبراج قصر الحمراء.

ان هذه الأحـداث كانت بطبيعـة الحـال تثلج قلوب الاسبـان وكـل المـتر بصـين بالامـة العـربيـة والاسلامية، لقد كانت احداثاً مؤسفة نظراً لما كرسته من تجزئة وانقسام قادا الى ضياع سلطان العرب في الأندلس، وعلى أثـر ذلـك انقسم المجتمـع الغـرناطي الى فئات متناحرة، قامت على اثرها عائشـة الحـرة بالهـرب مع ولـديهـا، وظهر ابوعبد الله محمد في وادي آش مع انصـاره ضد أبيـه، حيث انقسم المجتمـع الانـدلسي في مملكة غرناطة الى فريقـين، فريق يؤيـد السلطان ومحظيته، وفريق يؤيد الملكة الشرعية عائشة الحرة وولديها.

وقد قسم حكم غرناطة على اثر ذلك بين الأب وابنه، فقد جلس أبو عبـد الله الصغـير مكـان والـده حيث التف الشعب الغـرناطي حول الملكة الشـرعيـة (عـائشة الحرة) وولديها، لكونها تمثل الأصالة العربية والشرعية في العـرش، وانضـوت تحت رايتـه بعض المناطق الاندلسية، بينما بقيت بعض المنـاطق تدين بالـولاء لوالـده أبي الحسن الـذي هرب فيـما بعـد الى مالقـه الواقعة في الجنوب على الساحل الاندلسي.

وقام أبو عبد الله بتجهيز جيش وأخذ يزحف على قرطبة وحرّر الكثير من الحصون في طريقه، وهزم الاسبان في عدة مواقع، وأثناء عودته وفي موقعه (اللسانة) أدركه الاسبان وهزموه هزيمة قاسية، وسيق إلى قرطبة حيث ظل أسيراً هناك في قصرها بجوار جامع قرطبة ثم نفي الى قلعة نائية.

لقد عاد المقاتلون المسلمون الى غرناطة دون ملكهم أبي عبد الله، فارتاعت العاصمة ولكن عائشة الحرة احتفظت بهدوئها وكياستها وحلمها، واخذت تبث المعنويات في كل مكان في غرناطة.

وفي هذه الغضون حاولت غرناطة اعادة أبي الحسن الى عرشه بدل ابنه الأسير، ولكن الاعياء هدمه، والمرض فتك به، فتنازل عن المنصب لأخيه محمد أبي عبد الله الزغل حاكم ثغر مالقة.

لقد جعل فرديناند من رهينته أبي عبد الله الصغير ورقة يناور بها، مستخدماً الوسائل الماكرة للاستعانة به في تحقيق نواياه العدوانية في احتلال غرناطة.

وهنا ننقل ماقاله الدكتور محمد عبد الله عنان في تحليله لشخصية أبي عبد الله الصغير: «كان أبو عبد الله أميراً ضعيف العزم والارادة، قليل الحزم والخبرة، ولم يكن يتمتع بشيء من الخلال الباهرة، التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر، وكان الملك والحكم غاية يبتغيها بأي الأثمان والوسائل، وقد الغى ملك قشتالة القوي في ذلك الأمير الضعيف والطموح اداة صالحة يوجهها كيفما يشاء، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وابقى»[1].

وفي هذه الأثناء قامت فتنة سببها الرئيس أبو عبد الله الصغير

---

١ ـ نهاية الاندلس، ص ٢٠٦.

وجماعته، حيث دعاه حي البيازين[1]، فشغل أبو عبد الله الزغل باخماد الفتنة عن مقاتلة الاسبان، وقد استفاد فردينانـد من هذا التوقيت حيث اطلق سراح أبي عبد الله الصغير، بعد أن وقعه على معاهدة يدين بموجبها بالولاء والطاعة لملك قشتالة مدتها عامان، وتعمم على كل المناطق والبلدان التي يمارس عليها أبي عبد الله الصغير سيادته.

وفي عام ٨٩١ - ١٤٨٦م ظهر أبو عبد الله الصغير في حي البيازين ومن حوله انصاره، واسنده فردينانـد بالرجال والعتاد والتموين، فازدادت الفتنة في غرناطة اشتعالاً، وفي غمرة الحرب الأهلية في غرناطة قام فرديناند باحتلال بلش ومالقة على الرغم من استماتة أهلها في الدفاع عنها بمساندة الزغل، فعاد الزغل منها باتجاه غرناطة ليجدها تحت حكم أبي عبد الله الصغير في ظل الحراب الاسبانية، فاتجه صوب وادي آش، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة في احلك فتراتها الى شطرين:

أولا - غرناطة ويحكمها أبو عبد الله الصغير.

ثانيا - وادي آش وأطرافه، ويحكمها عمه أبو عبد الله الزغل.

ويقال بأن (لوشة) سقطت بيد الاسبان في هذه الفترة وفيها أبو عبد الله، وقيل: ان سقوط لوشة بيد الاسبان قد تم بموجب اتفاق مبرم بين ابي عبد الله الصغير وفردينانـد ملك قشتالة، وفي هذا الصدد يذكر المقري في نفح الطيب:

«وصرحت الالسن بأن ذلك الاتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة»، وقيل أن أبي عبد الله الصغير اسر مرة أخرى، وقيل أنه قد اتفق مع الاسبان بأن يساعدوه على استعادة العرش من يدعمه، بينما كانوا في الوقت ذاته يحاصرون بلش ومالقة حتى سقطت في أيديهم.

لقد تم تنصيب أبو عبد الله الصغير على عرش غرناطة مرة ثانية،

---

١ - حي البيازين: من أحياء مدينة غرناطة.

وكـان الاسبـان يحاصرون المناطق التي تخضع لحكم عمه الزغل الذي اشتهر بالبسالة والنضج والاقدام .

ان محاصـرة الاسبـان لأبي عبـد الله الـزغل وخيانة بعض قواده قاداه مضطراً الى عقد اتفاقية صلح مع الاسبان مقابل امتيازات معينة له ، ولكنه استعـاض بهذه الامتيـازات في النهـاية بمبالغ مالية هاجر بعدها الى المغرب يجتر آلامه ومعاناته هناك . . . .

وبـذلـك خلت السـاحـة لأبي عبد الله الصغير الذي اصبح الحاكم العـربي الـوحيد في الاندلس ، ويحكم غرناطة فقط حيث ان الاسبان بسطوا هيمنتهم على كل الثغور والمدن والمناطق العربية في الاندلس .

لقـد بقيت غرنـاطـة آخـرمعقل عربي اسـلامي في الاندلس ، وعلى مسافات منها يحيط بها الاسبان منتظرين الفرصة السانحة للانقضاض عليها واحلال النكسة فيها .

النكسة :

بعد أن احتل الاسبان أغلب الأرجاء الأندلسية ولم يبق امامهم سوى غرنـاطـة التي كانت مسألـة الاستيـلاء عليهـا بالنسبـة لهم مسألة وقت ، قام فردينـانـد وايـزابيـلا بارسـال رسالة الى أبي عبد الله الصغير يأمرانه بتسليم غرنـاطـة وقصـور الحمـراء ، فثـارت ثائرة ابي عبد الله لهذا الغدر والخديعة ، وعـرف جسـامـة الخطأ وهـوة المنـزلق الذي انزلق فيه بتحالفه مع هذا الملك الغادر ، فأظهر من الضعف قوة ، ورفض الخنوع والاستسلام ، وقرر الدفاع عن بلاده . . .

لقـد قامت عدة عمليـات حربيـة على مشارف غرناطة استبسل فيها العرب على الرغم من محاصرتهم بجيوش كبيرة مجهزة بشكل واف . . .

سار فردينـانـد بجيش تراوح مابـين ٥٠ ـ ٨٠ ألفـاً ، مع مدافع وعدد ضخمـة ، وذخـائـر وأقـوات ، وعسكر على ضفاف نهر حدارة (شنيل) على

مقربـة من غرنـاطة سنة ٨٩٦ ـ ١٤٩١م ، واتلف الحقول والزروع والقرى كي لاتمـد غرنـاطـة بأي طعـام ، وحـاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من ملك تليد ، يحيط بها العدو كالموج من كل جهاتها[1] .

وقطعت غرنـاطـة عما حولها تماماً باستثناء طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير «سيرانيفادا» ، فجلبت منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة .

وقـام فردينـانـد بالزحف على أسوار مدينة غرناطة المحاصرة ، فقاتله أهـاليهـا قتالاً ضارياً باسلاً ، وضربوا مثلاً رائعاً في التضحية والجهاد ، ولكن المشاة لم يصمدوا ، وامتنعوا خلف اسوارها يلاقون قدر تنازعهم وتمزقهم وترفهم .

وأخـذ جيش فردينـانـد وايـزابيـلا يحاصر غرناطة سبعة أشهر ، ولكن المحنة كانت كبيرة وفوق طاقة الغرناطيين ، حيث أخذ الجوع والمرض يفتك بالمسلمين .

وازاء هذا المـوقف قام كبـار القـوم في غرنـاطـة بتدارس الوضع في بهو قمارش أجمـد أبهـاء قصـور الحمـراء وكان امامهم خياران ووافقوا على شروط الاسبـان بقبـول المعـاهـدة الجائرة ، إما التسليم أو الموت ، ولم يعترض على التسليم الا القائد الصنديد موسى بن أبي غسان ، الذي روى بدمه الطاهر الزكي هضبة الحمراء المنحدرة باتجاه نهر حدارة ، حيث قال : «اتركوا العويل للنسـاء والأطفـال ، فنحن رجـال لنـا قلوب لم تخلق لارسـال الدمع ، ولكن لتقطـر الـدمـاء ، واني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيـل علينا أن ننقـذ غرنـاطـة ، وسوف تحتضن امنا الغبراء أبناءها أحراراً من اغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه» .

وقـال أيضـا : «إنـه لخير لي أن أحصى بين الـذين ماتـوا دفـاعـاً عن غرناطة ، من أن احصى بين الذين شهدوا تسليمها» .

---

١ ـ مصرع غرناطة ـ شوقي ابو خليل ـ ص ٨٠ .

ولكن حالـة الاستسـلام كانت تهيمن على جميـع الحاضرين في قصر الحمراء، فلم يجد لكلماته المنيرة أي صدى ومعنى لديهم فما كان منه الا ان غادر المجلس مخترقـاً بهو الاسـود «كـورة السبـاع» في قصـر الحمراء، عابساً حزينـاً، فذهب الى داره، وأخـذ سلاحـه، وامتطى صهـوة جواده مخترقـاً شوارع غرنـاطـة التي احتلهـا الاسبـان ولم يبق لديهم سوى احتـلال قصـر الحمراء الواقع على الهضبة.

وبـالقـرب من نهر حدارة (شنيل) واجه موسى بن أبي غسان مجموعة من الفـرسـان الاسبـان تقـدر بحـوالي الخمسة عشر، فطلبوا اليه أن يقف، ويعرف نفسه، فما كان منه إلاّ وأن انقض عليهم وأخذ يمزقهم شرّ ممزق....

لقـد كانت ضربـاتـه الفـولاذية قاتلةً للمحتلين الأوغاد، حتى لاقى معظمهم مصـرعـه، لكنـه في النهـاية اصيب بجرح سقط على اثر ذلك من جواده، وأخـذ يكيـل للبقيـة الطعنـات من خنجـره، ضاربـاً أروع المثل في الشجـاعـة والاستبسـال، فظـل يقاتل بمفرده حتى سقط شهيداً في مياه نهر شنيل، بعد أن دفعه سلاحه الثقيل الى الأعماق....

أمـا في قصـر الحمـراء فقـد شكـل وفد للتفاوض مع فرديناند وايزابلا حيث انتهت تلك المفاوضات بتوقيع الاتفاقية الجائرة والتي من ضمن بنودها تسليم قصور الحمراء لفرديناند وايزابيلا.

وفي حقيقـة الأمـر ان هناك اتفاقيتان، سرية وعلنية، الأولى وقعها أبو عبـد الله الصغـير وقواده مع فرديناند وايزابيلا، ووافق بموجبها أبو عبد الله على تسليم غرنـاطـة للملكـين الكاثوليكين مقابل امتيازات مادية لأبي عبد الله الصغير وحاشيته.

أما الاتفاقية الثانية فهي العلنية وهي محاولة للتغطية عمّا اتفق عليه أبو عبد الله مع الملكين الكاثوليكيين سراً، ولاضفاء صفة الشرعية على الاتفاق السري.

نص الاتفاقية السرية :

أُدرج ادناه النص الكامل لبنود اتفاقية العار ـ السرية ـ بين أبو عبد الله الصغير والملكين الكاثوليكيين، وننقل هذه البنود بنصها الكامل من كتاب (التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثولوكيين)[1].

١ ـ يتعهد ملك غرناطة والقادة والقضاة والحجاب والعلماء والمفتون والشيوخ، ووجهاء غرناطة والبيازين وأهاليهما وأرباضهما كافة صغاراً وكباراً، بأن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه في جوّ من الوفاق والمسالمة وفي مدة أقصاها ستون يوماً، إعتباراً من ٢٥ نوفمبر ١٤٩١ الأماكن التالية:

قلاع الحمراء وحصونها وأبوابها وأبراجها، وأية أبواب أُخرى في مدينة غرناطة وكورها، وكذلك جميع الأبواب التي تحددها هذه المعاهدة، وأن يعلنوا عن ولائهم وطاعتهم واخلاصهم لصاحبي السمو، وأن يؤدوا واجبهم تجاه ساداتهم الجدد، شأن سائر رعايا البلاد المخلصين، ولضمان تنفيذ سلامة هذه البنود، يقدم ملك غرناطة وقادته جميع الأشخاص المذكورين اعلاه خمسمائة شخص من أبناء علية القوم واخوانهم في المدينة والبيازين، لصاحبي السمو في المعسكر الملكي بمرج غرناطة وذلك قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو لمدة عشرة أيام، يتم خلالها ترميم القلاع وتزويدها بالمؤن، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء الفترة معاملة حسنة، وعند انتهاء الأجل، يرد الرهائن إلى ذويهم، وتسري هذه الاتفاقية على صاحبي السمو ابنهما الأمير ضون خوان وعقبهم، وأن يعامل

---

[1] ـ التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين، (١٤٧٤ ـ ١٥١٦م)، د. محمد عبدة حتاملة.

أبـو عبـد الله الصغـير وجمـاعتـه وجميـع أشراف منطقة غرناطة والبيازين وأية أمـاكن أخـرى كرعـايا واتباع لهم نفس الحقوق التي هي للرعايا الأصليين، وأن تشملهم حمايـة صاحب السمـو ورعـايتهـما، وان تترك لهم جميع منازلهم وأحوالهم وأملاكهم، من الآن وإلى أجل غير مسمى، دون أن يلحقها أي أذى أو يصـادر شيء منهـا، وفي مقـدمـة ذلـك كله يعـامـل الجميع باحترام وتقدير، شأن سائر الرعية من الاسبان.

٢ ـ وفي اليـوم الـذي يتم فيـه تسليم الحمـراء والحصـون والقـلاع والأبواب التي حددتها الاتفاقية، يقوم صاحب السمو باعادة ابن أبو عبد الله الصغـير المحجـوز لديهـما مع سائـر الخـدم والحشم، الـذين لم يكرهوا على التنصر اثناء احتجازهم إلى الملك أبي عبد الله الصغير.

٣ ـ بعد أن ينفذ أبو عبد الله الصغير كل البنود المذكورة في المعاهدة، يتعهد صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير وأحفاده وورثته حق الملكية المطلقة على الأماكن التالية:

أ ـ الأرجاء والكور في برجة.
ب ـ دلّاية
ج ـ مرشانة
د ـ بلذوذ
هـ ـ لوتشار
و ـ اندرش
ز ـ شبلس
ح ـ أجيجر
ط ـ أرجبة.

على أن تؤدى جميـع الضـرائب والأتـاوات والـرسـوم المستحقـة إلى صاحبي السمـو، ويحق لأبي عبد الله الصغير وأولاده واحفاده وورثته بحكم

الملكية المطلقة لهذه المناطق وما يلحق بها من الأرجاء المسكونة وغير المسكونة تحصيل خراجها وموروثاتها وريعها وعشورها وحقوقها، كما يحق لأي واحد من هؤلاء أن يتولى القضاء في هذه الأرجاء، والكور باعتباره سيدها، ولكنه في الوقت نفسه تابع وخاضع لصاحبي السمو، ولا يستطيع أي انسان السيطرة على أي من هذه المناطق، لأنها تعتبر من الناحية القانونية ملكاً شرعياً لأبي عبد الله الصغير، وله حق التصرف بها، وحرية بيعها أو رهنها متى شاء، شريطة ان تكون الأولوية عند البيع أو الرهن لصاحبي السمو، وإذا أرادا شراءها فيتفقان مع أبي عبد الله على الثمن الذي يرضى به.

ويستطيع صاحبا السمو الاحتفاظ بقلعة عذرة واراضيها مع سائر القلاع والابراج الممتدة على الساحل إذا رغبا بذلك، وإذا شاء صاحبا السمو استغلال قلعة عذرة بالإضافة إلى مياه شاطيء عذرة ـ ان امكن ذلك ـ وتبقى القلعة تابعة لأبي عبد الله الصغير، بعد ان يصلحها ويحصنها صاحبا السمو، وفي مراحل الاصلاح والتحصين تكون تابعة لصاحبي السمو، وبذلك لا يطالب صاحبا السمو بالفوائد المستحقة على القلاع والأبراج الممتدة على ساحل البحر، أما حراستها وحمايتها فهي من شأن أبي عبد الله الصغير وأما دخل هذه القلاع والكور والأرجاء، وارداتها في مراحل الاصلاح والتقوية والاستغلال فليس لأبي عبد الله شيء منه، باستثناء عائدات تأجيرها، لكن هذه القلاع والأرجاء والكور تبقى ملكاً لأبي عبد الله ولا تصادر منه، وإذا انعم صاحبا السمو على شخص ما بشيء من هذه الممتلكات التي اقطعت لأبي عبد الله الصغير، فلا يجوز له بيعها، وإذا ما رأى التخلي عنها، يقوم صاحبا السمو بتعويضه عنها بالطريقة التي ترضيه، اما إذا تركت هذه الأملاك للملك ابي عبد الله الصغير فيبقى ريعها ودخلها من حق أبي عبد الله، كما هو شأنها الآن وفيما بعد، دون ان يتهددها أي خطر أو حجز أو اعتراضات اخرى.

٤ ـ يقدم صاحبا السمو إلى الملك أبي عبد الله الصغير هبه قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب، تعادل (١٤) كوينتس، و (٥٥٠٠٠٠) مرافيدي يبعثان بها اليه عقب تسليم الحمراء وبقية القلاع في الوقت المحدد لها.

٥ ـ يمنح صاحبا السمو للملك أبي عبد الله الصغير كل ما ورثه عن والده السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة او البشرات، لتكون ملكاً له ولأولاده وعقبه وورثته، وتتضمن هذه الشركة معاصر للزيت وأراضي ومزارع وحدائق (حواكير)، وله الحق في بيعها أو رهنها والتصرف بها كيفما يشاء، كسائر الكور والأرجاء التي سلف ذكرها، باستثناء الأملاك التي كانت بحوزة بني نصر ملوك غرناطة السابقين، فانها تبقى ملكاً للدولة، ولا يجوز التصرف بها إلّا بأمر صاحبي السمو.

٦ ـ يمنح صاحبا السمو لملكات غرناطة، خاصة عائشة والدة أبي عبد الله الصغير، واخته وزوجته مريمه وثريا زوجة والدهُ السلطان أبي الحسن علي المعروفة بايسابيل دي سوليس، كل ما كان يملكه في غرناطة والبشرات، من الحواكير والأراضي والأرجاء والطواحين والحمامات، بحيث تكون ملكاً لهن ولعقبهن إلى الأبد، ولهن الحق في بيعها ورهنها والتصرف بها كما يشأن، مع ما يلحق ذلك من الامتيازات الممنوحة لأبي عبد الله الصغير.

٧ ـ تعفى جميع التركات التي ورثها أبو عبد الله الصغير، والملكات المذكورات وثريا زوجة مولاي أبي الحسن علي بن نصر، من الضرائب والفوائد اعتباراً من الآن وإلى الأبد.

٨ ـ يعطى للملك المذكور (أبو عبد الله الصغير) وللملكات المذكورات كل ما كان ملكاً لهم في مطريل، وتعطى الحجة رميمة العقارات التي كانت لها في مطريل، لتساوي بالامتيازات الممنوحة سابقاً.

٩ ـ إذا استسلمت لصاحبي السمو أية قرى أو مواقع تابعة للمملكة

قبل تسليم الحمراء فعلى صاحبي السمو اعادة جميع هذه المواقع للملك أبي عبد الله الصغير بشكل طوعي، وسوف تحظى هذه الأماكن بعناية أبي عبد الله الحسنة.

١٠ - ان لا يطلب صاحبا السمو أو أي واحد من سلالتهما ملك غرناطة أو أياً من اتباعه، في أي وقت يتبادل ما غنمه الطرفان من الأموال والعقارات، باستثناء ما تنص عليه بعض الاتفاقات ومعاهدات التسليم الخاصة المعقودة بين صاحبي السمو وملك غرناطة، بحيث يدفع صاحبا السمو لمالك العقارات ثمناً لها فتنتقل ملكيتها اليهما، ويحظر على أي انسان المطالبة باحقيته بوضع يده عليها بقليل ولا بكثير، ومن يخالف ذلك تتخذ بحقه أشد العقوبات الصارمة، ويعتبر خارجاً عن القوانين الاسلامية والمسيحية على السواء.

١١ - عندما يرغب الملك أبو عبد الله الصغير والملكات المذكورات آنفاً وزوجة مولاي أبي الحسن على والدة أبي عبد الله الصغير، وأولادهم واحفادهم، وقادتهم واتباعهم ونساؤ هم وفرسانهم ورماتهم وعيالهم، في العبور إلى المغرب، فسوف يجهز صاحبا السمو سفينتين كبيرتين من مدينة جنوة، للجواز بهم في الوقت الذي يشاؤ ون، وبحوزتهم أموالهم وثيابهم وذهبهم وفضتهم وجواهرهم ومواشيهم واسلحتهم ماعدا ذخائر تلك الاسلحة دون مقابل من نفقة أو أجر أثناء صعودهم السفن أو نزولهم منها مع تأمين وصولهم بطمأنينة وأمان وحسن معاملة، لأي مكان معروف سواء في المغرب أو الاسكندرية أو تونس أو اوران أو فاس، أو أي مكان يرغبون بالهبوط فيه.

١٢ - إذا لم يتمكن الملك المذكور أو أي شخص من المذكورين أعلاه من بيع عقاراته المشار اليها فله الحق في تفويض من يشاء لاستلام ريعها وارساله له اينما كان، دونما عائق أو قيد أو غرامة.

١٣ ـ يسمح للملك أبي عبد الله الصغير متى شاء، أن يرسل بعض اتباعه أوعماله إلى أرض المغرب للاتجار بالسلع، مصدرين ومستوردين، دون أن يتوجب عليهم دفع أية نفقات أوضرائب أوغرامات مالية مقابل هذا الاتجار، لا في ذهابهم ومكوثهم هناك ولا في ايابهم.

١٤ ـ يسمح للملك أبي عبد الله ان يبعث بست دواب محملة بالسلع إلى أية ناحية من النواحي التابعة لصاحبي السمو، من أجل مقايضتها بالزاد والمؤونة اللازمة، وتكون هذه الدواب معفاة من جميع الضرائب في المواني والمدن والقرى، والأماكن التي تجري فيها المقايضة إعفاء مطلقاً دون قيد أو نفقة.

١٥ ـ عندما يخرج الملك أبوعبد الله الصغير من مدينة غرناطة تمنح له حرية الاقامة والمسكن في الوقت الذي يشاء وفي الأراضي التي اقتطعت له حسب الاتفاقية، ويسمح له بالخروج مع من يشاء من حشمه وقادته وعلمائه وقضاته وفرسانه، وكل من يرغب بالخروج معه بخيولهم ودوابهم واسلحتهم، وبرفقة زوجاتهم وعبيدهم، ولا يؤخذ منهم سوى الذخائر التي سوف يضع صاحبا السموعليها أيديهما، ولن يفرض على أي من ذريتهم في أي وقت وضع علامة مميزة لهم في ثيابهم، ولهم ان يتمتعوا بسائر الامتيازات المتفق عليها في وثيقة تسليم مدينة غرناطة.

(انتهت معاهدة العار ـ السرية).

نص الاتفاقية العلنية:

المادة الأولى:

على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب والعلماء والمفتين والوجهاء بمدينة غرناطة والبيازين وضواحيها ان يسلموا إلى صاحبي السمو، أومن ينتدبانه للنيابة عنهما في مدة أقصاها ستون يوماً، اعتباراً من

٢٥ تشرين الثاني عام ١٤٩١م معاقل الحمراء، والبيازين، وابواب تلك المعاقل، وأبراجها، وابواب المدينة المذكورة، والبيازين، وضواحيهما، وضمن هذه الشروط يأمر صاحبا السمو بأن لا يصعد أي نصراني السور القائم بين الحمراء والبيازين، لئلا يكشف عورات المسلمين في بيوتهم، وان خالف أحد هذه الأوامر يعاقب عقوبة شديدة، وضمن هذا الشرط سيقدم المسلمون الطاعة والاخلاص والولاء كأتباع مخلصين لصاحبي السمو.

وضماناً لسلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم ابو عبد الله الصغير ملك غرناطة إلى صاحبي السمو، خمسمئة شخص من ابناء وبنات علية القوم، في المدينة والبيازين وضواحيهما، وذلك قبيل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم المعاقل المذكورة، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة، وفي نهاية الأجل يرد الرهائن إلى ملك غرناطة، ويراعي هذه الاتفاقية صاحبا السمو وابنهما ضون خوان وسلالتهم، ويعتبر ابو عبد الله الصغير وسائر قادته، وجميع سكان غرناطة والبيازين، وضواحيهما وقراهما وأراضيهما، والقرى والأماكن التابعة للبشرات، رعايا طبيعيين، ويبقون تحت رعايتهم ودفاعهم، وتترك لهم جميع بيوتهم واراضيهم، وعقارهم واملاكهم حالياً ودائماً دون أن يلحق بها أي ضرر أو حيف، وأن لا يؤخذ أي شيء مما يخصهم، بل بالعكس، سيتم احترام الجميع ومساعدتهم ويلقون المعاملة الطيبة، من قبل صاحبي السمو وشعبهما كخدم وأتباع لهما.

المادة الثانية:

في الوقت الذي يتسلم صاحبا السمو قصر الحمراء، يأمران أتباعهما بالدخول من بابي العشار ونجدة، ومن الحقل القائم خارج المدينة، وعلى من يعين لاستلام الحمراء أن لا يدخل من وسط المدينة.

المادة الثالثة :

في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء والبيازين، وشوارعهما وقلاعهما وأبوابهما وغير ذلك، يقوم صاحبا السموبتسليم ابن الملك أبي عبد الله الصغير، المحتجز في قلعة موكلين، مع سائر الرهائن الموجودين معه وسائر الحشم والخدم الذين كانوا برفقته، ولا يكرهون على التنصر اثناء احتجازهم.

المادة الرابعة :

يسمح صاحبا السمو وسلالتهما، للملك أبي عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائماً ضمن قانونهم - أي بممارسة الشعائر الاسلامية، دون المساس بسكناهم وجوامعهم وأبراجهم، وسيأمران بالحفاظ على مواردهم، وسيحاكمون بموجب قوانينهم وقضاتهم، حسبما جرت عليه العادة، وسيكونون موضع احترام من قبل النصارى، كما تحترم عاداتهم وتقاليدهم إلى غير حين.

المادة الخامسة :

لن تصادر من المسلمين أسلحتهم أوخيولهم أو أي شيء آخر، حاضراً وإلى الأبد، باستثناء الذخيرة الحربية التي يجب تسليمها لصاحبي السمو.

المادة السادسة :

يسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة[1] أو أي مكان آخر، من أهالي غرناطة والبيازين والبشرات والمناطق الأخرى، التابعة لمملكة غرناطة ببيع ممتلكاتهم وأراضيهم لمن شاؤ وا، ولن يحاول صاحبا السموو ذريتهما منعهم من ذلك أبداً، وإذا ما رغب صاحبا السمو بشرائها من أموالهما الخاصة، فشأنهما في ذلك شأن سائر الناس، ولكن الأولوية تكون لهما.

---

١ - أرض المغرب العربي.

المادة السابعة :

الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العدوة تجهز عملية نقلهم في غضون ستين يوماً من تاريخه، على متن عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانيء القريبة منهم، حسب رغبة المبحرين ليحملوا احراراً وطوع ارادتهم إلى المكان الذي يرغبون النزول اليه فيها وراء البحر - أرض المغرب - خاصة الموانيء التي كانت ترسو بها تلك السفن.

أما الأشخاص الذين يرغبون في العبور في غضون الأعوام الثلاثة القادمة فتهيأ لهم السفن الخاصة من الموانيء القريبة لمكان اقامتهم، شريطة أن يقدموا طلباتهم قبل موعد الرحيل بخمسين يوماً، وينقلون برعاية تامة إلى الميناء الذي يرغبون بالنزول فيه، ولا يترتب على من يريد العبور إلى العدوة خلال الأعوام الثلاثة هذه أجر أو نفقة، أما الذين يرغبون في العبور بعد انتهاء الأعوام الثلاثة، فعليهم دفع دوبلة واحدة فقط عن كل شخص، أما الذين لا يتمكنون من بيع املاكهم الموزعة في جميع انحاء مملكة غرناطة قبل سفرهم، فيحق لهم تفويض أي شخص من أجل تحصيل حقوقهم، وليقوموا مقامهم، ويتولوا بعد ذلك إرسال هذه الحقوق لأصحابها أينما كانوا وبدون أية عوائق.

المادة الثامنة :

لا يرغم صاحبا السمو وسلالتهما حاضراً وإلى الأبد المسلمين وأعقابهم على وضع أية شارة مميزة لملابسهم.

المادة التاسعة :

لا يحق لصاحبي السمو لمدة ثلاث سنوات من تاريخه تحصيل الأتاوات من الملك أبي عبد الله الصغير وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما، وهي الأتاوات التي يترتب أداؤ ها عن دورهم واملاكهم الموروثة، بل يكفي أن يدفع المسلمون لصاحبي السمو، عشر الخبز والذرة، وعشر المواشي خلال شهري نيسان ومايس.

المادة العاشرة:

على الملك أبي عبد الله وسائر سكان المملكة الذين شملتهم الاتفاقية أن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصارى، الذين في قبضتهم أو في أي مكان آخر طواعية ودون أية فدية، وذلك حين تسليم المدينة.

المادة الحادية عشرة:

على صاحبي السمو أن لا يستخدما أي رجل من أتباع أبي عبد الله أو سكان المملكة، أو أن يسخرا دوابهم في أي غرض دون ارادتهم، ودون ان تدفع لهم اجورهم.

المادة الثانية عشرة:

لا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد، أو أي مكان لعبادة المسلمين دون اذن من الفقهاء، ومن يخالف ذلك يعاقبه صاحبا السمو.

المادة الثالثة عشرة:

لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية، أو تحصيل الضرائب من المسلمين بشكل مباشر، أو ان يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم.

المادة الرابعة عشرة:

يعامل صاحبا السمو الملك أبا عبد الله الصغير وسائر رعاياه الذين شملتهم هذه المعاملة معاملة شريفة، وتحترم عاداتهم وتقاليدهم، وتمنح للقادة والفقهاء الحقوق، وتبقى الحقوق التي كان يتمتع بها هؤلاء زمن أبي عبد الله الصغير على حالها، ويعترف لهم بتلك الحقوق.

المادة الخامسة عشرة:

يجب أن يقضي في أية دعوى، أو مشكلة تقع بين المسلمين القضاة وفقاً لأحكام الشريعة الاسلامية، كما جرت عليه العادة.

المادة السادسة عشرة:

يصدر صاحبا السمو أوامرهما للمسلمين بعدم ايواء الضيوف من النصارى، او اخراج الثياب او الدواجن او الدواب، ويشمل ذلك صاحبي

السمو وجماعتهما، إذ يمنع على هؤلاء النصارى دخول بيوت المسلمين، واستعمال مضايفهم لاقامة الحفلات.

المادة السابعة عشرة:

إذا دخل نصراني منزل مسلم قسراً يطلب صاحبا السمو من العدالة ايقاع العقوبة عليه.

المادة الثامنة عشرة:

فيما يتعلق بقضايا التركات عند المسلمين يجب أن ينظر بها القضاة المسلمون، وفق النظم الاسلامية المتبعة.

المادة التاسعة عشرة:

تشمل هذه المعاهدة قاطني الأحياء المجاورة لمدينة غرناطة، وسكان القرى والأرجاء التابعة للمدينة والبشرات واماكن اخرى، بما في ذلك الأشخاص الذين قد يقبلون المعاهدة بعد مرور ثلاثين يوماً من تسليم غرناطة، ويتمتع هؤلاء بجميع الاعفاءات الممنوحة خلال السنوات الثلاث.

المادة العشرون:

يتولى الفقهاء ادارة ايراد الجوامع والحلقات الدراسية فيها، ما يرصد من أجل الصدقة أو عمل الخير، بما في ذلك ايرادات المدارس التي تنفق في تعليم الصبيان، لا يحق لصاحبي السمو التدخل بأي حال من الأحوال في شأن هذه الصدقات، أو الأمر بمصادرتها في أي وقت في الحاضر، أو فيما بعد.

المادة الحادية والعشرون:

لا يجوز لمن يتولى القضاء اصدار قرارات ضد أي مسلم بذنب اقترفه آخر، فلا يؤخذ الأب بذنب ابنه، ولا الولد بذنب والده، ولا أخ بذنب أخيه، ولا القريب بذنب قرابته، بل تقع العقوبة على من يقترف الجرم.

المادة الثانية والعشرون:

يقرر صاحبا السمو العفو عن المسلمين من اتباع القائد حميد أبي علي

الـذين كانـوا يذودون عن حصـونهم ضد هجـمات النصـارى ولا يطلب أي تعــوض عمن قتــل من النصـــارى اثنـــاء اصطـدامهم مع المـدافعـين من المسلمين، أو عما أخذه المسلمون من المكاسب في ذلك المكان، في الحاضر أو فيما بعد.

المادة الثالثة والعشرون:

يغفـر صاحبـا السمـو لمسلمي مدينـة الكابطي هجماتهم واعتداءاتهم التي كانت تستهدف حرس الملكين، وتمنح لهم حرية العيش كبقية اخوانهم الذين شملتهم هذه المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون:

يعتـبر صاحبـا السمو جميع أسرى المسلمين أو الفارين من الأسر إلى مدينـة غرنـاطـة والبيـازين وأرباضهما، أو إلى أي ناحية تابعة لمدينة غرناطة أحراراً، ولا تصدر العدالة بحقهم أي حكم كان، لكن هذا الامتياز خاص بمسلمي الأندلس ولا يشمل اسرى الجزر أو كناريس.

المادة الخامسة والعشرون:

لا يدفـع المسلمـون لصـاحبي السمـو أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين من الأتاوات.

المادة السادسة والعشرون:

يسمـح لجميع من عبروا العدوة من سكان غرناطة، والأرجاء التابعة لها، والبيازين وأرباضهما، والبشرات وغيرها، بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ ابرام الاتفاقية والتمتع بالامتيازات التي تمنحها لهم هذه الاتفاقية.

المادة السابعة والعشرون:

لا يجبر أي مسلم حمل معـه بعض الأسـرى النصـارى إلى العـدوة، وجعلهم في قبضـة سلطـة أخـرى، على ارجـاع هؤلاء الأسـرى، أو اعادة الأجر الذي تقاضاه لقاء تسليمهم.

المادة الثامنة والعشرون :

يحق للملك أبي عبد الله ، أو أي من قواده ، أو سكان القرى والأرجاء المجاورة لغرناطة والبيازين والبشرات وغيرها ، ممن عبروا إلى العدوة ولم تطب لهم الاقامة هناك ، ان يعودوا خلال الأعوام الثلاثة ، ولهم الحق بأن يتمتعوا بكافة نصوص الاتفاقية المبرمة .

المادة التاسعة والعشرون :

يحق لتجار مدينة غرناطة والبيازين وارباضهما ، والبشرات وغيرها ان يحملوا سلعهم إلى المغرب ، ويعودوا بها آمنين مطمئنين ، كما يحق لهم دخول سائر الأرجاء التي في حوزة الملكين الكاثوليكيين ، دون أن تترتب عليهم أية اتاوة مترتبة على النصارى .

المادة الثلاثون :

لا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين واعتنقت الدين الاسلامي على العودة إلى النصرانية إلّا طائعة ، ويعد أن تسأل في ذلك امام جمع من المسلمين والنصارى ، وفيما يتعلق بأبناء الروميات ، وبناتهن فلهم نفس الحقوق المنصوص عليها في هذه الفقرة .

المادة الحادية والثلاثون :

إذا سبق لنصراني ذكراً كان أو انثى اعتناق الاسلام قبل إبرام هذه الاتفاقية فلا يحق لأحد من النصارى ان يهدده ، أو ينال منه بأية صورة ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً .

المادة الثلانية والثلاثون :

لا يجوز ارغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية .

المادة الثالثة والثلاثون :

إذا رغبت امرأة مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر في اعتناق النصرانية بدافع العشق فلا يتجاب لها ، حتى تسأل وتوعظ وفقاً للشريعة الاسلامية ، وإذا حملت معها خفية بعض الحلي أو غيرها من دار والدها أو أقاربها أو أي

شخص آخر فيجب إعادة هذه الأشياء إلى ذويها وتعتبر اختلاساً وتتولى العدالة اتخاذ الاجراءات الصارمة بحقها.

المادة الرابعة والثلاثون:

ان لا يرغم صاحبا السمو أو أي واحد من عقبهما حاضراً أو مستقبلاً، أبا عبد الله الصغير، أو جماعته أو حاشيته، أو أي أحد من سكان المملكة أو خارجها مسلمين ونصارى ومدجنين برد ماغنموه اثناء الوقائع التي جرت بينهم، من الثياب والمواشي والانعام والفضة والذهب وغيرها من الأشياء، التي وضع المسلمون ايديهم عليها، ولا يحق لأحد أن يطالب بشيء يكتشف انه كان له، وإذا طالب به فانه يعرض نفسه لأقصى العقوبات.

المادة الخامسة والثلاثون:

إذا سبق مسلم أن أهان أسيراً نصرانياً - ذكراً كان أم انثى - أو جرحه أو قتله أثناء احتفاظه به، فلا يسأل عن شيء مما كان.

المادة السادسة والثلاثون:

بعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية تدفع ضريبة الأملاك والضياع الأميرية، وفقاً لقيمتها الحقيقية شأن سائر الأملاك والأراضي.

المادة السابعة والثلاثون:

تعامل أملاك الفرسان والقادة المسلمين المعاملة المنصوص عليها في البند السابق فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية.

المادة الثامنة والثلاثون:

وتشمل هذه الاتفاقية أيضاً اليهود من مواليد مدينة غرناطة والبيازين واربـاضهـا والأراضي التابعة لها، واليهود الذين كانوا من قبل نصارى، ويسمح لهؤلاء اليهود بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه.

المادة التاسعة والثلاثون:

ان يعامل الحكام والقواد والقضاة الذين يعينهم صاحبا السمو على

مدينة غرناطة والبيازين والكور التابعة لهما الناس بالحسنى، وان يحافظوا على امتيازاتهم الممنوحة لهم في المعاهدة، وإذا أخل أحدهم بذلك، أو ارتكب خطيئة يصدر صاحبا السمو أوامرهما بمعاقبته على قدر جرمه، وعزله من منصبه وتولية غيره، من يحسنون معاملة المسلمين كما نصت عليه الاتفاقية.

المادة الأربعون:

لا يحق لصاحبي السمو أو أي من أبنائهما وأحفادهما منذ الآن التعقب على شيء ارتكبه الملك أبو عبد الله الصغير، أو أحد من رعاياه، إلى حين تسليم الحمراء أي بعد مرور ستين يوماً من توقيع هذه الاتفاقية.

المادة الحادية والأربعون:

أن لا يولى على جماعة أبي عبد الله الصغير واحد من الفرسان أو القادة أو الخاصة الذين كانوا موالين لمولاي أبي عبد الله الزغل ملك وادي آش، عم أبي عبد الله الصغير الذي كانت بينه وبين أبي عبد الله عداوة قديمة.

المادة الثانية والأربعون:

يتولى النظر في الخصومات التي قد تقع بين مسلم ونصراني، أو مسلمة ونصرانية، مجلس مؤلف من حكمين: أحدهما مسلم والآخر مسيحي، تحاشياً للتظلم من الأحكام القضائية.

المادة الثالثة والأربعون:

وبالاضافة إلى جميع ما نصت عليه الاتفاقية، يأمر صاحبا السمو بمنح أبي عبد الله الصغير كل الامتيازات المنصوص عليها في الاتفاقيات الموثقة بخاتم الأمير - نجل صاحبي السمو - والموقعة من قبل كاردينال اسبانيا والكهان والاساقفة ورؤساء الأديرة والشرفاء والدوقات والمركيزات والكونتات وأصحاب المراتب الجليلة وكتاب العدلية في مدينة غرناطة، اعتباراً من يوم تسليم الحمراء والبيازين وأبوابها وابراجها، وتعتبر جميع محتويات هذه الاتفاقية نافذة وسارية المفعول في الحاضر وفيما بعد.

المادة الرابعة والأربعون :

يصدر صاحبا السمو أوامرهما بالافراج عن أسرى المسلمين، ذكوراً واناثاً، من أهالي غرناطة والبياسين وأرباضهما والكور التابعة للمملكة، افراجاً غير مشروط بنفقة أو فدية أوغيرها، وذلك بغية ارضاء الملك أبي عبد الله الصغير واهالي غرناطة والبيازين وارباضهما وضياعهما كافة، ويتم الافراج عن هؤلاء الأسرى على النحو التالي:

يفرج عن جميع أسرى مدينة غرناطة والبيازين وأرباضهما وضياعهما الموجودين في الأندلس، خلال الأشهر الخمسة التي تعقب ابرام المعاهدة، ويفرج عن الأسرى الموجودين في قشتالة، خلال الأشهر الثمانية التالية، وبعد انقضاء يومين من تسليم أسرى النصارى لصاحبي السمو، يتسلم المسلمون مئتي أسير مسلم، مئة من الرهائن، والمئة الثانية من غير الرهائن.

المادة الخامسة والأربعون :

يصدر صاحبا السمو أوامرهما باخلاء سبيل (ابن الدرامي) الأسر عند (غونثالو فرناندث)، و(عثمان) أسير (الكونت تنديا)، وابن رضوان اسير الكونت (قبرة)، واعادة ابن الفقيه محي الدين وخمسة اشخاص من خاصة ابراهيم بن السراج الذين فقدوا وعرف مكان وجودهم، وذلك في الوقت الذي يسلم فيه صاحبا السمو أسرى مدينة الحمراء والبيازين المئة والرهائن المئة.

المادة السادسة والأربعون :

إذا خضعت أية ناحية من نواحي البشرات لسلطة صاحبي السمو فانه يتأتى على المسلمين تسليم جميع الأسرى النصارى الموجودين لديهم، في مدة أقصاها خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام، دون أن يؤدي سموها أي شيء مقابل ذلك التسليم، كما يجب على هذه النواحي تسليم أية رهينة من النصارى لديهم خلال المدة، ويقوم صاحبا السمو في مقابل ذلك باعادة جميع أسرى المسلمين المحتجزين لدى الاسبان.

المادة السابعة والأربعون:

يتعهد صاحبا السمو لجميع السفن التي تأتي من المغرب، وترسو في موانيء مملكة غرناطة، بحرية التنقل ذهاباً واياباً، وهي آمنة شريطة ان لا تقوم بنقل الأسرى من النصارى، ويصدر صاحبا السمو أوامرهما للنصارى بعدم اعتراض هذه السفن أو الاضرار بها أو بأهلها أو بمصادرة شيء منها. . وفي حالة مخالفة احدى السفن لهذه التعليمات بنقل الأسرى من النصارى، فإن حقها في الحماية يصبح لاغياً، ويحق لسموهما ارسال مفتش أو مفتشين يتوليان مهمة تفتيش السفن التي تعبر إلى المغرب، للتحقق من نفاذ هذه التعليمات.

(انتهت معاهدة العار ـ العلنية).

وتوجد هناك معاهدة عار ثالثة وكما يتضح انها الأخيرة، وقد صيغت بنود هذه الاتفاقية لترتيب عملية عبور أبو عبد الله الصغير إلى المغرب، بعد تنازله عن جميع ممتلكاته مقابل مبالغ مالية في نيسان ١٤٩٣، ويضم المتحف الحربي في مدريد صورة عن هذه الاتفاقية.

زفرة العربي الأخيرة:

لقد تم تسليم قصور الحمراء في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني ١٤٩٢م، حيث التقى في صباح ذلك اليوم الأسود من تاريخ امتنا، ابو عبد الله مع ممثل الملكين الكاثوليكيين في باب الطباق وتبادلا التحية، وقال ابو عبد الله: «هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة تسلم هذه القصور باسم الملكين العظيمين اللذين اراد لهما الله القادر ان يستوليا عليها لفضائلهما، وزلات المسلمين»[1].

---

١ ـ نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين، د. محمد عبد الله عنان.

أسرع بعد ذلك ممثل الملكين إلى اعلى ابراج الحمراء ووضع عليه صليباً فضياً، وقام القساوسة باحتلال الجامع ووضعوا الصليب في محرابه، وعلقوا النواقيس في المئذنة.

أما أبو عبد الله الصغير المنكوب فقد أطلّ على الحمراء بعد أن رحل عنها، والقى النظرة الأخيرة على قصور الحمراء، التي أخذ الاسبان يرفعون راياتهم وصلبانهم على أبراجها ومبانيها، وهنا زفر زفرة عميقة اتبعها بعبراته، فقامت والدته الحرة عائشة بمسح دموعه وربتت على كتفه قائلة له:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وفي غمرة هذه المشاهد التراجيدية المأساوية، نزل أبو عبد الله الصغير بينما كان الاسبان يسدون باب الطباق في قصر الحمراء الذي خرج منه هذا الملك المشرد.

التقى أبو عبد الله الصغير بعد ذلك الملك فرديناند وسلمه مفتاح البابين الرئيسيين لقصور الحمراء قائلاً له:

«إنهما مفتاحي هذه الجنة، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين في اسبانيا، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا، وهكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيماً وعادلاً»[1].

وتسلم الملك فردينانـد المفتاحين وقال: «لا تشك في وعودنا ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة، فسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك»[2]، وانزل بعد ذلك العلم العربي الغرناطي من فوق برج الحراسة الذي يتوسط مبنى القصبة القديمة في الحمراء باعتباره اكبر واعلى ابراج الحمراء، ليحل محله العلم الاسباني.

---

١ ـ نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين، د. محمد عبد الله عنان.

٢ ـ نفس المصدر.

هكـذا انتهى آخـر مظهـر من مظـاهـر السيـادة العـربيـة الاسـلامية بالانـدلس بعـد أن تواصلت ما يقـربٍ من ثمانيـة قرون في ظل الراية العربية الاسلامية، سطر العرب خلالها سجلاً حافلاً بالمجد والمنعة والتقدم في جميع مناحي الحياة، مما يعد فخاراً للاسبانيين.

وبعد سبع سنوات نقض فرديناند وايزبيلا شروط التسليم، واجبروا الموريسكيين[1] الذين لم يبرحوا مدينتهم غرناطة على اعتناق المسيحية قسراً وبأساليب ارهابية عنيفة، مما ادى بأهل حي البياسين في غرناطة إلى اعلان الثـورة ضد المحتلين، قام الاسبـان على اثـرهـا بقمـع الثورة بشتى وسائل العنف والعـدوان، مما اضطـر المسلمـين إلى الفرار من غرناطة والنزوح إلى المغـرب حيث نزلـوا فاس وتطوان وغيرهما من المدن المغربية، بعد ان واجهوا وسـائـل العنف والتعـذيب المـوجهـة ضدهم والتي قامت بها محاكم التفتيش الاسبانية المشكلة بموجب مرسوم بابوي في عام ١٤٧٨م.

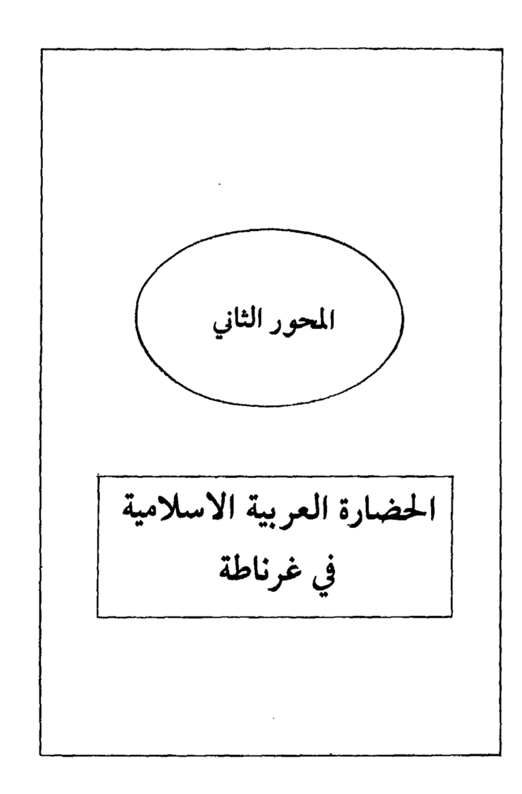
هكـذا ضاعت الأنـدلس، وان ضيـاعهـا عبرة كبـيرة لامتنا العربية خاصة في ظروفها الراهنة، التي تعاني فيها امتنا من عدة حالات سلبية طارئة كالتجزئة والتخلف واغتصاب فلسطين.

انها دعوة لعلنا نستفيد نحن العرب ولو بدرس واحد من دروس التاريخ.



---

١ ـ المـوريسكيـون Los moriscos : اسم يطلق على جميـع من بقي في الأنـدلس من المسلمين بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، وهو صفة من لفظ Moro الذي يطلق في بعض النصوص الاسبانية على عرب الأندلس ومسلميه.



المحور الثاني

الحضارة العربية الاسلامية في غرناطة

الفصل الرابع

قصر الحمراء

● رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته
ذهبت به للأنس والليل قد ذهب
ترى الأرض منها فضة فاذا اكتست
بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب

يعتبر قصر الحمراء في غرناطة رائعة من روائع العمارة العربية الاسلامية، نظراً لما تتجلى فيه من قيم جمالية وابداعية غاية في الروعة والتقنية العالية.

ان هذه المعالم الفنية والحضارية الخالدة جعلت من زوار قصور الحمراء في الوقت الحاضر يمكثون في غرناطة طويلاً وخاصة المفكرين والباحثين والكتاب والمؤرخين، ليسلطوا الأضواء على هذه المعالم الحضارية الشاخصة عبر حقب التاريخ.

وأثناء زيارتي لقصر الحمراء في غرناطة في عام ١٩٨٥م، وقفت أياماً أتأمل هذه الانجازات الحضارية التي انتجها أجدادنا، واستوحي من كتابات الحمراء ونقوشها وابراجها وقاعاتها وسوحها وحدائقها وأسوارها مؤشرات التواصل وآفاق السموق العربي.

الحمراء.. لمحة تاريخية:

يتفق معظم مؤرخي العمارة العربية الاسلامية، الذين تناولوا دراسة قصور الحمراء بشكل واسع وعميق، على ان اسم (الحمراء) عرف به

القصر في نهاية القرن الثالث الهجري المقابل للقرن التاسع الميلادي . .
وكان يطلق على حصن صغير لجأ اليه العرب الهاربون في اثناء الفتن واعمال الشغب التي ظهرت خلال حكم الأمير عبد الله الأموي ، وكان هذا الحصن قد شيد عند طرف هضبة السبيكة الغربي .

وفي أيام بني الأحمر (بنو نصر)، امتدت مباني الحمراء فوق الهضبة كلها .

وان هذا الحصن الصغير الذي شيّد في نهاية القرن الثالث الهجري الموافق التاسع الميلادي ، يغلب انه هجر في نهاية أيام الخلافة في الأندلس .

وفي أوائل النصف الأول للقرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، أعيد بناؤه واتسعت ارجاؤه في أيام الوزير اليهودي صاموئيل بن نجرلو (٤٤٣ ـ ١٠٥٢م) (٤٤٧ ـ ١٠٥٦م) .

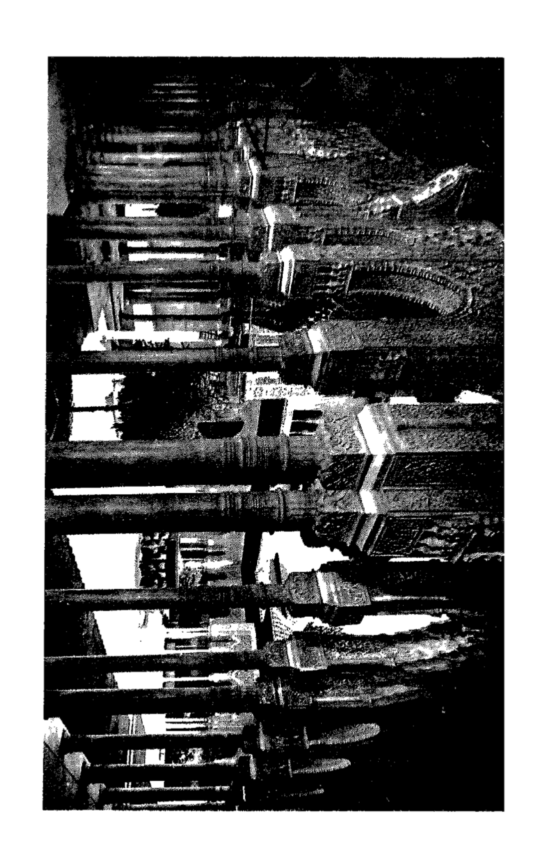
ثم نهض الأمير الزيري عبد الله بتحسينه ، بعد أن تأثر بما شاهده في قصر بليلوس المسيحي الذي استولى عليه .

ورد ذكر هذا الحصن مرات عديدة في أثناء النزاعات والصراعات المحتدمة بين الاسبان والمرابطين والموحدين ، وقد كانت مساحته صغيرة في تلك الحقبة بدليل ان فرق ابن حمشق اضطرت لأن تعسكر خارج اسواره .

وتدل بعض مخلفات جدرانه وأبراجه المجاورة لمبنى الحمراء ـ الجديد ـ على ضعف بنيانه وبساطة مواده التي شيد بها .

وعندما دخل محمد بن الأحمر (بني نصر) غرناطة في رمضان ٦٣٥ ـ ١٢٣٨م ، اقام في قصبة بني زيري التي كانت في مدينة غرناطة نفسها ، لكنه لم يدخر وسعاً في انشاء قصر الحمراء بفترة زمنية قياسية في اسرع وقت مستطاع .

لقد بديء العمل في انشاء قصر الحمراء بعد أشهر قلائل من دخوله غرناطة ، وكان المبنى الجديد يختلف اختلافاً بيناً عن الحصن القديم في وسائله وسعته وجوانبه وملحقاته ، فالحمراء اكثر من حصن وقصر معاً ، انها



مدينـة اسـتراتيجيـة كاملة ، ومركز وقاعدة الحكومة العربية الاسلامية ـ دولة بني نصـرـ ، كما كانت مدينـة الـزهـراء في قرطبـة ، والمـدينـة الزاهرة وقصبة الموحدين في مراكش .

وفي مقـابـل الحي التجـاري لمدينة غرناطة ، تقوم قصبة اخرى ، رُتب وعُـدل بنـاؤ هـا واضيفت اليـه مبان جديدة اخرى لتغطي حاجات بني نصر وتستوعبهم بعد تأسيس وارساء دعائم ملكهم .

ولقـد احتوت بالاضافة إلى القصور الملكية ، على المصالح الحكومية والادارية ودار الضرب للمسكوكات وثكنات الحرس ودواوين اخرى ومجالس كبـار المـوظفـين ، وكل ما يحتاج اليه الاتباع والحجاب والمراسلين ، وما يحتاج اليه العامة من المصانع والحوانيت والحمامات والمسجد الكبير .

وقد قام محمد الأول ومحمد الثاني بتشييد الأسوار الخارجية ، وفي فترة حكم يوسف الأول (٨٣٣ ـ ٥٥هـ) (١٣٣٣ ـ ١٣٥٤م) شيـدت أبـراج قمارش وبـرج المطـرقة والقنديل ، والأبواب الثلاثة الكبرى : باب الشريعة ـ باب الطبـاق الثـلاثـة ـ باب السـلاح ، أمـا برج المتـين Peinador فقـد اتمه السلطان محمد الخامس .

لقـد اخـذت الأسـوار المحيطة بأعلى الهضبة شكلها النهائي في منتصف القـرن الثـامن الهجـري ، الرابع عشر الميلادي ، وقد شيدت وسائل للدفاع عن قصور الحمراء ، حيث بنيت قواعد المدافع خلال القرن الخامس عشر ، وقد شيدت تلك المصاطب ـ القواعد ـ عند اسفل البوابات الثلاث الكبرى .

إن ثلاثـة من أبـواب الحمـراء تؤدي إلى الخـارج وهي أبـواب : الشـريعـة ، والطبـاق الثـلاثـة ، والقمـم المسننة ، أما باب السلاح فهو وحده الذي يصل الحمراء بمدينة غرناطة .

إن لأبـواب الحمـراء نسبـاً معمارية ضخمة من كتل المباني الحجرية ، وتتضمن الـدهـاليز المقباة ذوات الانثناءات والتعرجات والالتواءات الكثيرة

واحيـانـاً تتقاطع، وهي تعتبر من أرقى نماذج الأبواب في العمارة العسكرية، ولباب الشريعة ـ وهو خال من الأبراج ـ عقد جميل ودعامة عالية.

أمـا الأبـواب الاخـرى فلا تختلف كثيراً عن معظم الأبواب الكبرى التي شيدها الموحدون او المرينيون في مراكش، ولا سيما عندما يكون لها برجان.

والأسوار الخارجية العالية لها ممشى للحرس له دورة تعلوها الشرفات، ولا يخفى ان توزيع الابراج في الأسوار غير متساوٍ، فهي مقامة عند مسافات مختلفة، وتتوسط المسافة بين البرج والآخر قرابة خمسين متراً.

ومثلما ذكـرنـا آنفـاً ان لبعض الأبـراج طبـاقاً عالية وهذه تشتمل على قاعـات كبـيرة، من أهمها قاعة العرش اوقاعة السفراء (قمارش) التي تشغل الطابق العلوي في برج مربع وكبير، ولهذه القاعة ومثيلاتها نوافذ كبيرة تطل على غرناطة وعلى البرج.

وعنـد هذا النشـز الـرائع تنتهي جبال سيرانيفادا ذات المناظر الخلابة التي طالما تغنى بها شعراء غرناطة من امثال ابن الخطيب وابن زمرك وغيرهما.

ان هذا المـوقـع الخلاب الذي يجمع الجبال والوديان والسهول الانهار والغـابـات تتـوسطـه الهضبة التي ارتفعت عليها مباني الحمراء، ويبلغ طول الهضبة ٤٧٠ متراً وعرضها حوالي ٢٢٠ متراً.

وبدأ العمل في تشييد قنطرة كبيرة لنقل المياه من الجبال المجاورة إلى الهضبة، وكانت المياه متوافرة في كل مكان في المدينة وفي قصور الحمراء.

ان قصـور الحمـراء لم ينتـه العمل منها في أيام محمد بن الأحمر، بل انتهت في ايـام ابنـه الامـير محمـد الثـاني (٦٧١ ـ ٧٠١)هـ (١٢٧٣ ـ ١٣٠٢م)، ومنـذ تلك الحقبـة لم يغـير ملوك بني الأحمـر قاعـدتهم الفخمـة والمنيعة حتى غادروها نهائياً في عام ١٤٩٢م.

والحمـراء قبـل كل شيء تعتـبر حصنـاً استـراتيجيـاً منيعـاً، ان هذا

الحصن ذو الأسوار والأبراج المنيعة الذي يحيط بالحمراء من اقوى وانضج ما عرف في فن العمارة الحربي . . انه وحده يستحق العناية والدراسة .

أما الفناء الكبير الذي تضمه الساحة في الداخل والذي ينحدر على كلا الجانبين من الهضبة ، كان مقسماً إلى ثلاثة أجزاء : فالى الغرب يقع مجمع من التحصينات المترابطة المتماسكة أي ـ القصبة ـ وفي أعلى جزء كانت تقع مباني قصور الحمراء ، وعلى السفوح المنحدرة للهضبة والتي تمتد في ناحية الشرق تقع مدينة غرناطة .

الحصن والأسوار والأبراج :

عند طرف التل المواجه Vega تقع القصبة حصناً منيعاً وهي مستقلة تماماً عن بقية الحمراء ، وقد اشتملت على مساحة كبيرة كأرض لتدريب الجند للاستعراضات العسكرية ، وقد اقيمت فيها بعض الدور الصغرى بعد ذلك .

ويحيط بهذه الساحة سور منيع مثلث الشكل ، مشتملاً على موانع وستائر من الجدران المرتفعة ، تكتنفها الأبراج وتدعمها ثلاثة أبراج شامخة ومقباة وإلى الشرق سور خارجي آخر ، ولهذه القصبة بوابتها الكبرى المؤدية إلى الخارج .

أما الأسوار التي تحيط بقصور الحمراء كلها والتي تكملها القصبة طبعاً في ناحية الغرب فهي منيعة ومشيدة بالحجارة الصلبة وتتألف من جدار واحد فقط .

ان هذه الأسوار شاهقة وتكتنفها الأبراج التي يبلغ عددها ثلاثة وعشرين برجاً كبيراً ، يكون الطابق العلوي لمعظمها محتوياً على الردهات .

وفيما يلي ندرج أهم أبراج القصبة وأبوابها : باب الحراسة ـ باب السلاح ـ باب التكريم ـ البرج المهدوم ـ برج الدراق ـ باب الشريعة ـ باب

النبيذ - باب المطرقة - بهو السفراء (قمارش) - برج السفراء - برج متزين الملكة - برج النساء - برج البرطل - برج القمم المسننة - برج الحديد - برج القنديل - برج الأسيرة - برج الأميرات - برج الماء - برج الطباق السبع (القدور) - برج الطليعة - برج الرؤوس.

وحول برج الأسيرة الذي تطلق عليه أيضاً تسمية - برج أبي الحجاج -، نرى بأن هذا البرج احتفظ من الخارج بمظهره الأصلي، وله باب فخم نقش على عتبته هذه الكتابة:

«. . . الباسل أبي عبد الله الغني بالله، ابن مولانا أمير المسلمين السلطان الجليل، الملك الأصيل، ذو المحامد والمناقب، والعطايا الجزيلة والمواهب، الحامي الديار: القامع أعداء الله الكفار، أبي الحجاج ابن مولانا السلطان المعظم». .

وفي احدى غرف البرج، نقرأ الآية الكريمة: بسم الله الرحمن الرحيم «انا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . .».

وفي البرج الذي يليه من ناحية الشرق، وهوبرج الأميرات نقوش بالدعاء للسلطان ابي عبد الله المستغني بالله وهوعلى الأغلب السلطان محمد الغني بالله.

ويعتبر باب الشريعة هو المدخل الرئيسي لقصر الحمراء اليوم، وقد نقش على قوسه سطران، كتب فيهما بخط اندلسي متشابك، العبارات التالية:

«أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة، أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس ابي الوليد ابن نصر كافي الله في الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل اعماله الجهادية، فتيسر ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية. .».

يقـابـل هذا التـاريـخ ٧٤٩هـ سنـة ١٣٤٨م، والسلطـان يوسف أبو الحجـاج هو أعظم سلاطـين مملكـة غرناطة، وقد حكم في الفترة (١٣٣٣ - ١٣٥٤م)، وقد شيّد أفخم اجنحة الحمراء واجملها.

ووراء باب الشـــريعـة مجاز معقـود، يوجـد فيـه محراب من النـاحيـة اليمنى، وفي نهايتـه مضلى، وقـد صنعت به لوحـة رخـاميـة اشير فيها إلى حصار غرناطة وتسليمها للملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا عام ١٤٩٢م.

ثم نصل إلى باب الخمر وهو اسم مستحدث - استحدثه الاسبان فيما بعـد، ويتـوج هذا الباب نص تاريخي يتضمن اسم السلطان الغني بالله ابن السلطان أبي الحجاج الذي شيّد باب الشريعة.

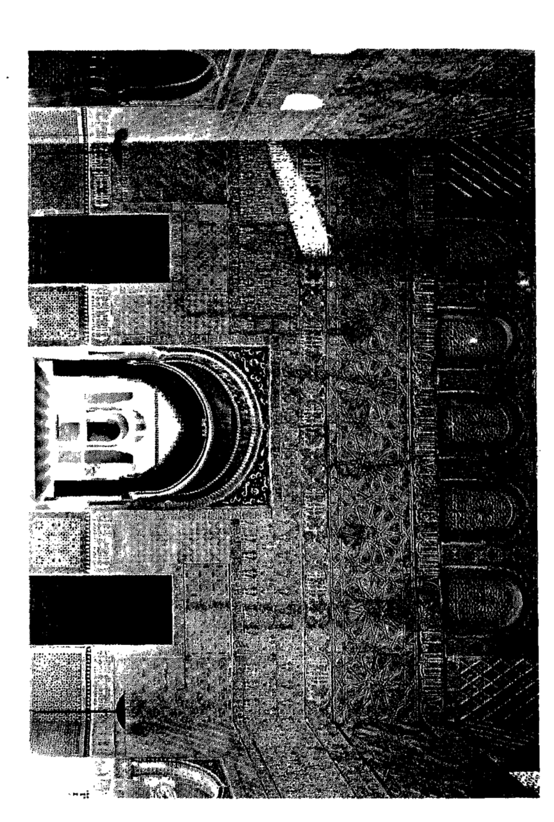
وعنـد خروجنـا من باب الخمـر، نجد انفسنا في ساحة الجب، وعلى يميننا قصر شارلكان (شارل الخامس) الذي بني مؤخراً بعد سقوط غرناطة، والذي هدم جانب من قصور الحمراء من أجل اقامة هذا البناء الدخيل.

ان معظم مبـاني الحمـراء القائمة اليوم، يرجع الفضل في انشائها إلى السلطـــان ابي الحجـاج يوسف بن أبي الـوليـد اسـماعيـل سابـع ملوك بني نصـر. ويعـود الفضـل اليـه ايضـاً في تشييـد باب الشـريعة - المؤدي إلى الشارع - ومنه نعبر إلى ساحة الجب (صهريج المياه).

وبـاب الشـريعـة بوابة يتمثل فيها الاسلوب المعماري العربي ويرتفع قرابة خمسة عشر متراً يؤدي إلى وسط مباني الحمراء، إلى الميدان الواقع بين القسم العسكـري من مبـانيهـا أي الأبـراج، والقسم المـدني، وهي الـدور والحدائق ودوائر الدولة ومؤسساتها.

يدخـل الزائرون اليـوم إلى قصـور الحمراء عن طريق ممر يشبه المنزل يؤدي إلى دهليز قصير، ومعه تصل إلى قاعة المشور.

ان هذا الجـزء الـذي دخلناه، لم يكن أهل غرناطة يدخلون منه ذلك لأن القـاعـــة التي تعـرف الان بالمشـور كانت وسـط سلسلة من القـاعـات



والابهاء، وقد تهدمت اغلبها، فكان أهل غرناطة يدخلون من باب آخر في نهاية ساحة الجب.

مجموعة قصور الحمراء:

لقد شيدت مباني الحمراء الأولى في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، وقد خربت تلك القصور لتقوم محلها قصور الحمراء التي بناها بنو نصر بعدها وهي الخالدة إلى يومنا هذا والتي نتحدث عنها.

فقد كانت هناك مجموعة من مباني الحمراء، كانت تقع في الغرب، ودمرت منذ زمن، وقد كشفت التنقيبات الآثارية منذ سنوات عن اسسها، ويبدو منها فناء مربع، تطل عليه عدة قاعات صغيرة، وإلى جانبها مسجد صغير، وتتبع المسجد ساحة كبيرة عرفت بساحة المطرقة، يحده شمالاً سقيفة تؤدي إلى ردهة كبيرة تقع في أعلى أحد الأبراج المتصلة بالسور المخيطة بالحمراء.

تلك هي مجموعة المباني المندثرة، اما القصور الحالية، فتتألف من مجموعتين اخريين، شيدت كل مجموعة حول مساحتين على محاور عمودية كبر ى.

إن المجموعة الأولى تتجسد في دور قمارش (السفراء) يسبقها بهو المشور، وساحة صغيرة، وقد قام بتشييد البناء السلطان يوسف الأول.

أما المجموعة الثانية فهي قصر السباع الذي تتوسطه ساحة السباع، وقد شيده السلطان محمد الخامس.

وهناك بعض الحمامات القديمة، ومسجد يصل بين المجموعتين المذكورتين آنفاً واللتين شيدتا في القرن الرابع عشر.

أما (المشور) فقد تم انشاؤه في عام ١٣٦٥م، كما تشهد أبيات شاعر الحمراء الوزير ابن زمرك الغرناطي، وهو المكان الذي خصص في القصر

للموظفين الذين يعاونون الملك في ادارة شؤون الدولة العربية الاسلامية.

لقد تغيرت سمات (المشور) الرئيسية ولم يبق منها سوى بعض زخارفه الجصية، وفسيفسائه الرخامية، وفي شعار بين الأحمر وبعض ما تبقى من النقوش العربية.

إن أهم ما تبقى من المشور: القاعة الكبرى، وفيها نقش باسم السلطان محمد الملقب بالغني بالله، يتضمن أبيات الشعر التالية:

يا منصب الملك الرفيع ومحرز الشكل البديع
فتحت للفتح المبين وحسن صنع أو صنيع
أثر الامام محمد ظل الاله على الجميع

ويُوجد خلف قاعة المشور مصلى يحتفظ إلى اليوم بمحرابه الرائع، تتصدره العبارة التالية: «أقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين».

وفي المشور توجد ـ القاعة المذهبة ـ نسبة إلى الزخارف المذهبة التي ازدانت بها، وهناك ساحة إلى جنوبها تقع سقيفة لها بابين، الأيسر: يؤدي إلى قاعة صغيرة تقود الزائر إلى ساحة الرياحين (ساحة السفراء)، والباب الايمن: يؤدي إلى المدخل الأساسي الأول للقصر، وقد سدت معالمه اليوم، وفوق الباب ذي الدفتين، طراز من الخشب نقشت عليه هذه الأبيات:

منصبي تاج وبابي مفرق
يحسب المغرب في المشرق
والغني بالله أوصاني أن
أشرع الفتح لفتح يطرق
فأنا منتظر طلعته
مثل ما يبدي الصباح الافق
أحسن الله له الصنع كما
حسن الخلق له والخلق

وأبيات ابن زمرك الغرناطي التي وصف فيها قاعة المشور، تعتبر الوصف الوحيد الباقي لدينا في هذه القاعة، كما كانت عندما فرغت من انشائها يد الفنان العربي :

به البهو قد حاز البهاء وقد غدا
به القصر آفاق السماء مباهيا

وكم حلة قد جللته بحليها
من الوشي تنسي السابري اليمانيا

وكم من قسي[1] في ذراه ترفعت
على عمد بالنور باتت حواليا

فتحسبها الأفلاك دارت قسيها
تظل عمود الصبح إذ لاح باديا

سوارى قد جاءت بكل غريبة
فطارت بها الأمثال تجري سواريا

به المرمر المجلو قد شف نوره
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا

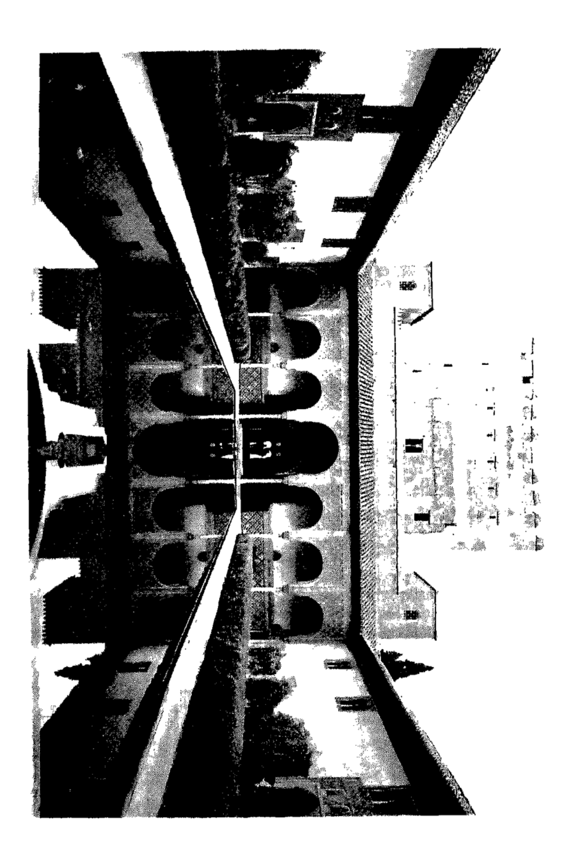
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها
على عظم الاجرام منها لآليا

أما ساحة الريحان أو (السفراء)، فانها من عجائب الحمراء، بل اعجبهم جميعاً، حيث تتوسطها بركة مستطيلة الشكل وأحواض تحف بجوانبها أشجار الريحان، بناها محمد الخامس، وقد نقشت في زوايا ساحة الرياحين هذه العبارة التالية :

«النصر والتمكين، والفتح المبين لمونا أبي عبد الله أمير المؤمنين»، ونقشت ايضاً الآية الكريمة : «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم».

---

١ ـ القسي : أقواس صغيرة قامت عليها قبة سقف المشور، وقد زالت تلك القبة الآن.



ونقشت على الأفريز الرخامي الأوسط للساحة قصيدة من اثني عشر بيتاً وهذا مطلعها:

تبارك من ولاك أمر عباده
فأولى بك الاسلام فضلاً وأنعما

وقد نقشت فوق الأبيات وتحتها عبارة: «ولا غالب إلّا الله» باستمرار.

ويؤدي باب ساحة الرياحين الشمالي إلى بهو صغير يسمى بهو البركة، به قبلة زينت بنقوش قشيبة.

ويفضي بهو البركة من الناحية الشمالية، إلى أعظم أبهاء (قاعات) الحمراء، وهو بهو السفراء أو بهو قمارش.

إن اروع ما في بهو السفراء زخارف قمته التي ما زالت تحتفظ بنقوشها الأصلية، أما نقوش الجدران، فمع جمالها ليست إلا تجديداً مقلداً لنقوشها القديمة.

لقد نقشت في عقد باب قاعة السفراء العبارات التالية:

«الحمد لله على نعمة الاسلام» و «العز لمولانا ابو الحجاج عز نصره».

ونقشت الأبيات التالية في جانب العقد الأيمن بعد عبارة «الحمد لله»:

فقت الحسان بحليتي وبتاج
وهوت إلى الشهب في الأبراج

يبدو اناء الملك فحي كعابد
في قبلة المحراب قام يناج

ضمنت على مر الزمان مكارمي
ذي الأوام وحاجة المحتاج

فكأنني استقربت آثار الندى
من كف مولانا ابي الحجاج

لا زال بدراً في سمائـي لائحـاً
ما لاح بدر في الظـلام الـداج

ونقشت الأبيات الآتية في جانب العقد الأيسر بعد عبارة «الحمد لله»:

وقـمـت أتأمـل صانـعـي ديبـاجي
من بعـد ما نظـمـت جواهـر تاجـي
وحـكـيـت كرسي العـروس وزدتـه
ان ضمـنـت سعـادة الأزواج
من جاءني بشـكـو الظـمأ فمـوردي
صرف الـزلال الـعـذب دون مزاج
فكأنـني قوس الـغـمام إذا بدا
والـشـمس مولانـا أبـو الحـجـاج
لا زال محروس المـهـابـة ما غدا
بيـت الالـه مثـابـة الحـجـاج

ونقش في الـدائـرة العليـا للبهـو، العبـارة التالية بشكل متكرر: «عز لمولانا السلطان أبي الحجاج».

ونقشت في أسفـل مدار القبـة بحـروف بيضـاء النص الكامل لسورة الملك في القـرآن الكـريم: «بسم الله الـرحمن الـرحيم. تبـارك الذي بيده الملك وهـو على كل شيء قديـر، الـذي خلق المـوت والحيـاة ليبلوكم ايكم

أحسن عملاً وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الـرحمن من تفـاوت فارجـع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتـين ينقلب اليـك البصـر خاسئـاً وهـو حسـير، ولقـد زينـا السـماء الدنيا بمصـابيـح وجعلنـاها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير، وللذين كفـروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصـير، إذا القـوا فيهـا سمعوا لها شهيقاً

وهي تفـور، تكـاد تميز من الغيظ كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها الم يأتكم نذير، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان انتم إلا في ظلال كبير، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، ان الـذين يخشـون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير، واسروا قولكم أو أجهروا به انـه عليم بذات الصـدور، الا يعلم من خلق وهـو اللطيف الخبـير، هو الـذي جعـل لكم الأرض ذلـولا فامشـوا في منـاكبهـا وكلوا من رزقـه واليـه النشور، أمنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم امنتم من في السـماء أن يرسـل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير، ولقد كذب الـذين من قبلهم فكيف كان نكـير، أولم يروا إلى الطـير فوقهم صافـات ويقبضن ما يمسكهن إلاّ الـرحمن انـه بكـل شيء بصير، أمّن هذا الذي هو جنـد لكم ينصـركم من دون الـرحمن ان الكـافـرون إلاّ في غرور، امّن هذا الـذي يرزقكم ان امسـك رزقـه بل لجوا في عتـوو ونفور، أفمن يمشي مكباً على وجهـه أهـدى أمّن يمشي سويـاً على صراط مستقيم، قل هو الـذي أنشأكم وجعـل لكم السـمـع والأبصـار والأفئـدة قليـلا ما تشكرون، قل هو الـذي ذراكم في الأرض واليـه تحشـرون، ويقـولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقـين، قل إنـما العلم عنـد الله وانـما أنـا نذير مبين، فلما رأوه زلفة سيئت وجـوه الـذين كفـروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون، قل أرأيتم إن اهلكني الله ومن معي أورحمنـا فمن يجير الكـافـرين من عذاب أليم، قل هو الرحمن آمنّـا به وعليـه توكلنـا فستعلمون من هو في ظلال مبين، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين». صدق الله العظيم . .

وعلى جدار المشرفية، وهو الجدار الشمالي للبهو نقرأ هذه العبارة وهي توشح اعلى الجدار: «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا ابي الحجاج أمير المسلمين نصره الله». . . بشكل متكرر مراراً.

ونقش في محيـط البهـو شعـار بني الأحمـر ـ بني نصـر: «ولا غالب إلاّ

الله»، ونقشت ابيات شعرية في احدى فجوات القبة السفلى هذا مطلعها:

تحيــيــك مني حين تصــبــح أو تمســي
ثغــور المنى والـيـمـن والسعـد والأنس

ونقشت في الفجوات الأخرى مقابل الأبيات الشعرية، العبارة الآتية: «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين أيد الله أمره وعز نصره».

ويفضي بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلي يعرف بفناء السرو[1]، وقد زرع الاسبان فيه بعض أشجار السرو، وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية العربية.

حمّامات الحمراء:

يعتبر حمام الحمراء، الواقع إلى جانب السرو، قرب بهو البركة، من أروع الحمامات العربية نظراً لما يشكله من قيمة فنية رائعة تتواكب مع فتنة قصر الحمراء، وتضفي عليها سحراً وجاذبية مثلما تفعل الأزهار في الجنان، فتصوروا منظر جنة داخل جنة اخرى.

ان حمامات الحمراء تشتمل على ثلاثة اقسام وهي:

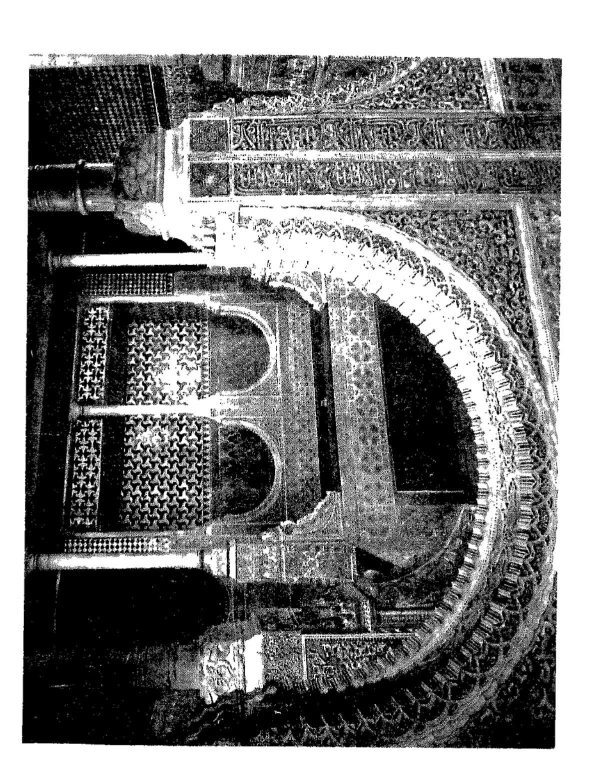
١ ـ الاستراحة ٢ ـ الغرفة الدافئة

٣ ـ الغرفة الساخنة.

أما قاعة الاستراحة في الحمام، ويسميها الاسبان قاعة السريرين، فتتألف من سريرين اقيما بالطوب في جانبي القاعة، وكسيا بالقراميد ذات الألوان المختلفة، وبأعلى هذين السريرين عقدان صغيران متجاوران، يقومان على عمد ثلاث، غاية في الدقة والرشاقة، اثنان منهما على الجانبين

---

١ ـ قام الاسبان باستحداث هذا الفناء.



لصق الجدارين، والثالث في الوسط، وأمام السريرين نافورة مياه، وتعتبر هذه الردهة وهي في العادة استراحة، يجلس فيها السلطان قبل أن يمضي إلى الغرفة الدافئة، ويحتمل ان تكون مخلع للثياب، علاوة على كونها مجلساً للسلطان لبعض الوقت بعد الفراغ من الاستحمام وقبل مغادرة الحمام.

«وقد بقيت بعض القاعات بنقوشها وأصباغها إلى الآن، وتطل على القاعة الساخنة شرفات كانت تستخدم كمجلس لفريق موسيقي يعزف الألحان، بينما الامير والاميرات يسترخون في هدوء، دون أن ينغص عليهم أحد هذا الهدوء»[1].

ان القسم الثاني من الحمامات هو (الغرفة الدافئة) والتي تلي (الاستراحة) مباشرة، وفيها نجد حوضاً كبيراً، تتصل به انابيب وجميعها تتصل من الجهة الاخرى بحجرات الوقود، وذلك بطريقة فنية ذات تقنية عالية ومحكمة، فضلاً عن وجود قناة انبوبية مستقلة تنشر العطر في جو الحمام[1].

أما القسم الثالث من حمام الحمراء فهو (الحجرة الساخنة)، وبها هي الاخرى حوض كبير تعلوه كوة في الجدار، وبها فتحتان، كانتا فيما مضى منبعاً للماء بنوعية الساخن والبارد، ان هذه القاعة يوجد في تجويفها التحتي والمحيط بها، قنوات للوقود، وتعلوها قبة ذات زجاج ملون مع بعض الفتحات لخروج البخار.

وفي الكوة العليا في الحجرة الساخنة نقشت قصيدة من ستة أبيات، وهي من نظم الوزير الشاعر ابن زمرك الغرناطي:

اعجب شيء حادث أو قديم

مرابض الأسد ببيت النعيم

---

١ ـ رحلة إلى بلاد الاندلس ـ احمد عبد الرحمان السماوي ـ ص ١٤١.

١ ـ شواهد من الفن المعماري الأندلسي في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣ ـ ٧٥٥هـ) د. محمد كمال شبانة ـ مجلة منبر الاسلام ـ تموز ١٩٧١ ـ ص ١٥٩ ـ ٦١٤.

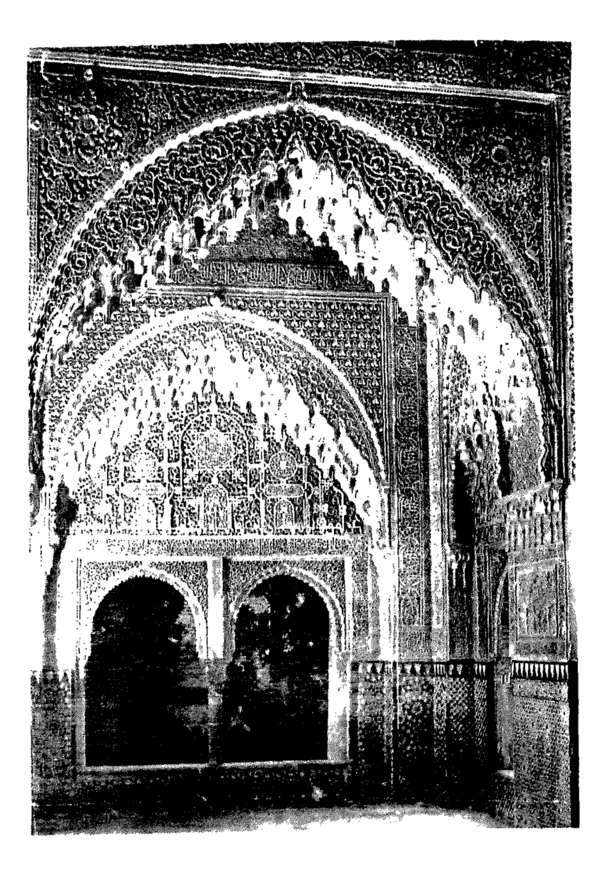
من اسـد قابـله مثـله
قاما لدى المولى مقام الخديم
تقاسما وصفى علاه فمن
باس له جام وجود عميم
يفيض ذا عذب برودا وذا
ضد له فهو يفيض الحميم
هذا وكم من عجب عاجب
يسره سعد المقام الكريم
من كأبي الحجاج سلطاناً
لا زال في نصر وفتح عظيم

وتوجد في هذه الحمامات بعض النقوش الخطية الأثرية لبني نصر: «ولا غالب إلّا الله».

ومنها حكم سائرة من مثل: «الله عدة بكل شدة»، ومنها دعاء لمنشيء هذا الجناح الرائع من الحمراء مثل: «عز لمولانا أبي الحجاج»، ومنها آيات قرآنية كريمة كقوله تبارك وتعالى: «نصر من الله وفتح قريب».

ان بعض النقوش والزخارف الكتابة تشير إلى دور أبي الحجاج في اكمال ما نقص من بنيان هذا الحمام.

وفي استعراضنا لأقسام واجنحة قصر الحمراء، نصل الآن إلى (قاعة الاختين)، وتقع شرقي فناء البركة ونصل إليها من باب الفناء الشرقي من رواق معتم، ويقال انها سميت كذلك لاحتواء أرضها على قطعتين متساويتين وفريدتين من الرخام، وقد نقش عند مدخلها بالخط الكوفي عبارة: «ولا غالب إلّا الله» بشكل متكرر، ونقشت تلك العبارة أيضاً حول جدرانها في الاسفل والاعلى، ونقش تحتها بعض الابيات المقتبسة من قصيدة الوزير الشاعر ابن زمرك الغرناطي، (وفي الجزء الرابع من نفح الطيب للمقري ص ٧٠٥ ـ ٧٠٩، تراجع القصيدة كاملة).



ويحيط بقاعة الاختين عدة شرفات، الشرفة الرئيسية تطلق عليها تسمية منظرة داراشا أوليندراشا، ويقال ان الاولى تحريف لدار عائشة، والثانية لعين دار عائشة.

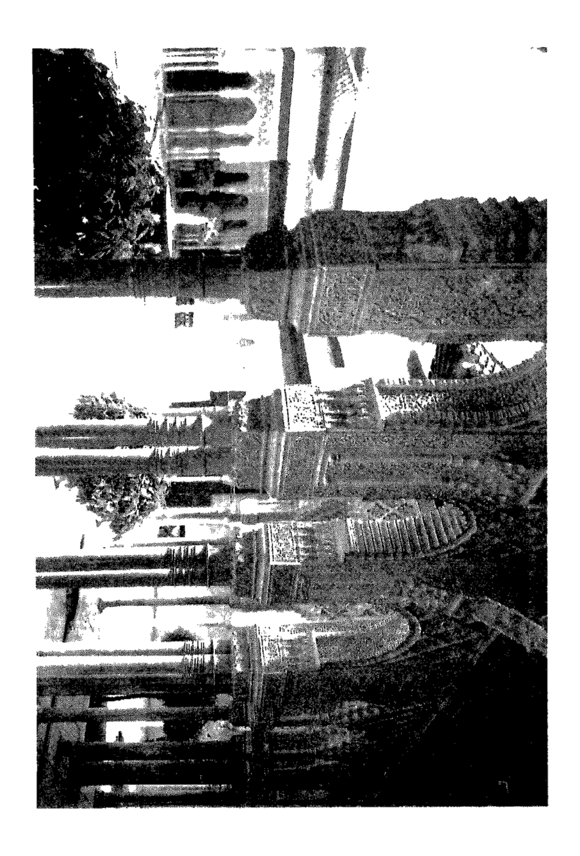
وتؤدي قاعة الاختين من بابها الجنوبي إلى اروع تحفة جمالية في الحمراء، وهو جناح بهو الاسود اوساحة السباع، وقد قام بانشائه السلطان محمد الغني بالله الذي تولى السلطة في عام (٧٥٥ ـ ١٣٥٤م) وتوفي سنة (٧٩٣ ـ ١٣٩١م)، حيث نرى اسمه منقوشاً في كثير من مواضع هذا الجناح الجميل.

«وشاءت الاقدار ان يظل هذا القصر ـ أي جناح الاسود ـ سليماً لم يلحقه أي تدمير كالذي اصاب العمائر العربية الاسلامية بالاندلس، عقب حركة الإسترداد الاسبانية، وذلك لأنه اتخذ مسكناً للملكين **الكاثوليكيين** فرديناند وايزابيلا عقب نكسة سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م في يدهما»[1].

ان زائر بهو السباع يصل اليه من باب صغير مفتوح في الجدار الفاصل بينه وبين بهو الرياحين ـ السفراء ـ الذي كان المقر السياسي الرسمي لرؤساء الدولة العربية الاسلامية في غرناطة، وكانت تضفي عليه الناحية البروتوكولية، **حيث تقام فيه مراسيم الاستقبال الرسميّة في قاعة السفراء ببرج** قمارش المطل على البركة المستطيلة المحاطة بشجر الريحان، والتي تحدثنا عنها آنفاً، فإذا عبرنا هذا الباب وجدنا أمامنا بهو السباع وهو القصر الخاص بسكنى السلاطين، وقام بتشييده السلطان محمد الخامس (١٣٥٤ ـ ١٣٥٨ ـ ١٣٦١ ـ ١٣٩١)، كما يستدل من النقوش الكتابية التي تزين الجدران.

بهو السباع عبارة عن فناء يحيط به ممر ومن خلفه القاعات والغرف.. الفناء مستطيل تبلغ ابعاده ١٢٦× ٧٣× ٢٢,٥ قدماً، وتتوسطه نافورة بلغت شهرتها الآفاق وهي نافورة السباع.

١ ـ بهو السباع بقصر الحمراء بغرناطة ـ جمال محرز ـ المجلة التاريخية المصرية.



وتبـدو نافـورة السبـاع كقطعـة كبـيرة من الرخام يبلغ قطرها ١٠,٥ قدمـاً، وعمقهـا قدمـان ويـدور حول حافتهـا العليا من الخارج نقش عربي يتجسد في أبيات من الشعر للوزير الشاعر ابن زمرك الغرناطي سندرجها فيما بعد.

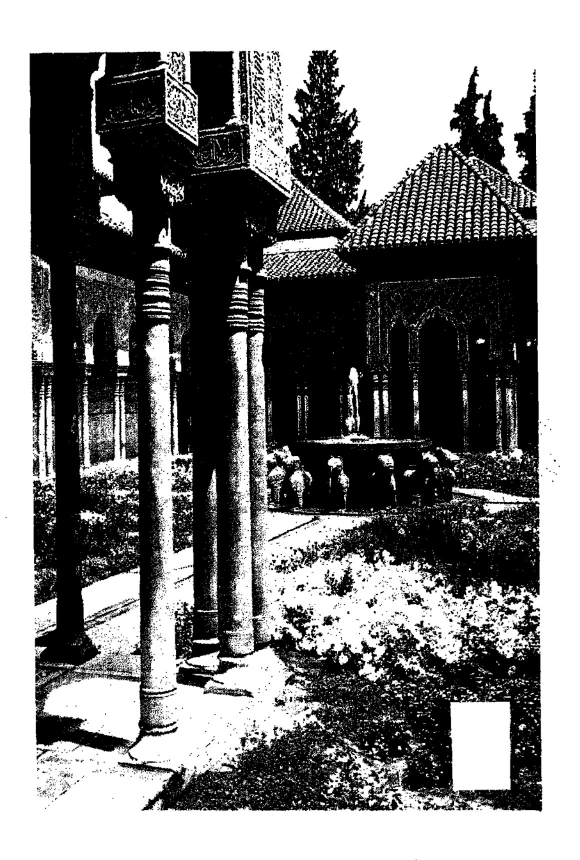
ويحمـل هذه القصعـة اثنـا عشـر أسـداً، يبلغ ارتفـاع كل واحد منها قدمـان ونصف تمج الماء من أفـواههـا حيث تنسـاب في قنـوات تصـل إلى نافـورتـين احـداهما بغرفة بني السراج والاخرى في غرفة الاختين، كما تصل أيضاً إلى نافورتين أسفل الكشكين وبكل كشك نافورة من الرخام..

ويحيـط بالبنـاء عمـد تبلغ ١٢٤ عموداً موزعة حولها فرادى أو مثنى أو ثلاث أو ربـاع، وجميعهـا من الـرخـام الأبيض، ويبلغ طول العمود الواحد عشرة أقدام، وتمتاز برشاقتها، وتقرأ أحياناً فوق تيجانها عبارة «ولا غالب إلا الله» شعـار بني الأحمـر، وبـالفنـاء كشكان، كشك بكل ضلع، وارتفاع كل منهـما ٢٩ قدمـاً، ويتكـون من ١٢ عقـداً من المقـرنصات يحملها ٢٠ عموداً ذات تيجـان مزينـة بنقـوش كتـابيـة ومزخرفة بالجص المخرم، وقبة الكشك نصف كروية ومزخرفة بمتشابكات من نجوم واشكال متعددة الأضلاع.

ومن خلف هذين الكشكـين والاعمـدة المقـامـة حول السـاحـة، ممر عرضـه ٧,٥ قدم، ويـدور حول السـاحـة ومن ارتفاع واحد، كورنيش من الخشب المزخرف الذي يحمل الحائر (الرفرف) المحمول على كوابيل مزخرفة..

وتوجد في الساحة - أي فناء الاسود - طائفة من المنقوشات التي كتبت بالخط النسخي والكوفي على الجدران والأعمدة والنافورة، وسندرجها فيما يلي:

نقش شعار بني نصر: «ولا غالب إلاّ الله» بالخط النسخي والكوفي، في الجـانب القبـلي خلف الأعمدة، وفوق تيجان الأعمدة التي تحمل القبة، كذلك على رؤوس جميع الأعمدة الاخرى، ونقشت العبارة الآتية على كل



عمود ثان: «عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله».

ونقش على الأعمدة التي تحمل القبة المواجهة ـ البحرية ـ «ولا غالب إلّا الله»، ونقش على رؤوس الاعمدة في المجموعتين الاخريين: «عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله».

وإلى جانب هذه الأدعية التي تمجد أبي عبد الله الغني بالله، منشيء هذا البهو البديع، نقشت قصيدة شعرية فوق دائرة قصعة النافورة التي تحملها السباع، وتضم اثني عشر بيتاً، وهي من نظم الوزير الشاعر ابن زمرك الغرناطي:

تبارك من أعطى الامام محمدا
مغاني زانت بالجمال المغانيا

وإلّا فهذا الروض فيه بدايع
أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا

ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها
تجلى بمرفض الجمان النواعيا

يذوب لجبن سال بين جواهر
غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا

تشابه جار للعيون بجان
فلم ندر منهما كان جاريا

ألم تر أن الماء يجري بصفحها
ولكنها مدت عليه المجاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه
وغص بذاك الدمع إذ خاف واشيا

وهل هي في التحقيق غير غمامة
تفيض إلى الآساد منها السواقيا

وقد اشبهت كف الخليفة إذ غدت
تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا

فيا من رأى الآساد وهي روابض
عداها الحيا على أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لا عن كلالة
تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلدا
تجدد أعياداً وتبلي أعاديا

وفي منتصف الجانب الجنوبي من بهو الأسود، يقابلنا مدخل قاعة بني السراج، تلك الاسرة التي كان لها دور خطير في نهاية تاريخ غرناطة العربي والاسلامي، ولعبت دورها هذا في أيام السلطان ابي الحسن وابنه ابي عبد الله الصغير.

تعلو قاعة بني السراج ـ مستطيلة الشكل ـ قبة مضلعة وفي جوانبها كوات صغيرة، وقد نقشت في دائرة القبة الوسطى عبارة «ولا غالب إلّا الله» بالخط النسخي والكوفي.

وتطالعنا أيضاً في قاعة بني السراج، أبيات شعرية من قصيدة ابن زمرك الغرناطي:

فتحسبها الافلاك دارت قسيها
تظل عمود الصبح إذ لاح باديا
تبيت له كف الثريا معيذة
ويصبح معتل النواسم راقيا
وتهوى النجوم الزهر لوثبت به
ولم تك في افق السماء جواريا

وتتوسط قاعة بني السراج بركة في وسطها نافورة، وهذا الحوض مستدير الشكل ومصنوع من المرمر.

ويقال ان هذه البركة قد طافت بدماء أفراد بني السراج أيام الأحداث الدامية والفتنة الأهلية التي حدثت في غرناطة.

ويبدو الاحمرار واضحاً لا شك إنه إحمرار الرخام في قاع الحوض، ولكن يقال بأن ذلك الاحمرار ينسب إلى دماء بني السراج، حيث ان هذه البركة الصغيرة امتلأت بدمائهم.

أما **(قاعة الملوك)** فيبرز مدخلها في الناحية الشرقية لبهو الاسود، وتعرف أيضاً بقاعة العدل، ومدخلها عقد مثلث الجوانب، وبها ثلاث عقود أو حنايا، وقد رسمت في سقف الحنية الوسطى منها صورة عشرة فرسان مسلمين يلبسون العمائم، ويجلسون على الوسائد، وتتسم هيئاتهم بالوقار والمهابة، ويقال إن هذه الصور تمثل ملوك غرناطة العشرة الذين تولوا الحكم قبل أبي عبد الله، أولهم محمد الغني بالله، وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله الصغير.

وفي شمال قاعة الاختين، وشمال بهو الاسود، تقع منظرة اللندراخا، ونشاهد في عقد المدخل فجوتين، نقشت بينهما عبارة «ولا غالب إلّا الله»، ونقشت في كل منهما أربعة أبيات شعرية، أما صحن نافورة اللندراخا فقد نقش عليها قصيدة من تسعة عشر بيتاً وهذا مطلعها:

أنا حقاً فلك الماء بدا	للأنام ظاهراً لم يحجب
لجة عظيمة ساحلها	من بديع المرمر المنتخب

وهناك رواقاً بين قاعة الاختين وبين منظرة اللندراخا، فيه باب يؤدي إلى ساحة مستطيلة، انشأت أيام الامبراطور شارلكان، وفي هذه الساحة بابان يؤدي كلاهما إلى الطبقة العليا التي تقع فوق جناح الحمامات، ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يؤدي إلى «متزين الملكة»، ويقع متزين الملكة تحت برج المتزين الذي يرجع إلى عصر السلطان يوسف ابي الحجاج، وقد انشأ متزين الملكة - وهو بهو صغير منخفض السقف، في القرن السادس عشر بعد سقوط غرناطة، ورسمت على جدرانه صور وزخارف مسيحية، وتطل شرفة المتزين على مدينة غرناطة ومروجها الساحرة.

وتقع في خارج الحمراء خرائب «الروضة»، أو مدفن ملوك بني نصر، وهي واقعة في جنوب شرقي ساحة السباع، وعلى مقربة من كنيسة سانتا ماريا التي شيدت فوق موقع مسجد الحمراء.

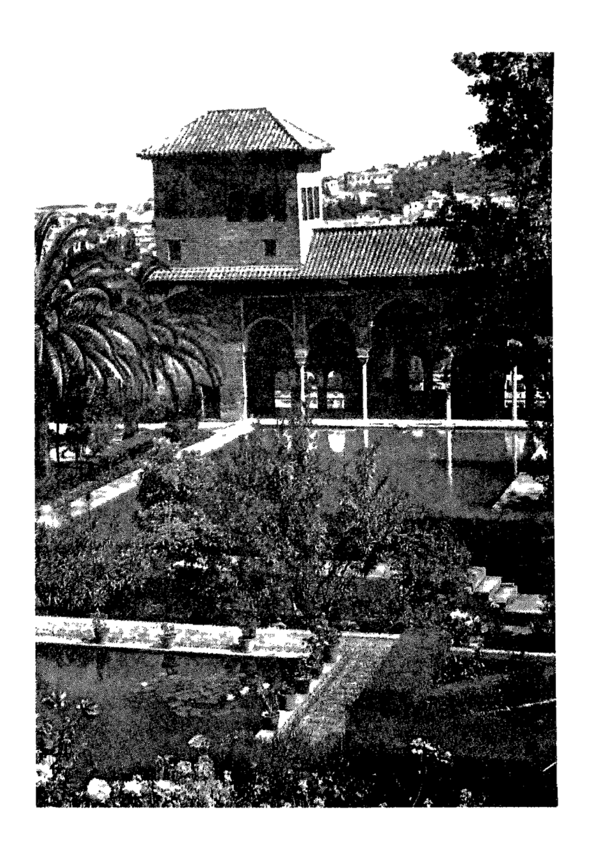
لقد كان المسجد يقع في وسط الهضبة، جنوبي الروضة، وقد امر بتشييده السلطان محمد الثالث (١٣٠٢م - ١٣٠٩م)، وقد بني على ابدع طراز وفق ريازة عربية اسلامية متكاملة، ولما احتل الاسبان غرناطة تركوا المسجد على حاله فترة، ثم اقاموا هيكلاً فيه واستعملوه كنيسة، ثم هدم في عام ١٥٧٦م في عصر فيليب الثاني ابن شارلكان واقيمت مكانه كنيسة سانتا ماريا ذات البرج الشاهق الذي يعلو مباني الحمراء.

ولم يبق من مخلفات هذا المسجد سوى مصباح برونزي بديع الشكل يحفظ الآن في متحف مدريد.

جنة العريف:

وعند انتهائك من زيارة قاعات الحمراء، وخرجت إلى (جنة العريف)، وهو منتزه الحمراء، وفيه قصر شيد في أواخر القرن الثالث عشر، وزين على يد السلطان أبي الوليد اسماعيل ملك غرناطة الذي كانت فترة ولايته في (١٣١٤ - ١٣٢٥م).

ويقع هذا القصر في شمال شرقي الحمراء، فوق ربوة مستقلة وهو يشرف على الحمراء، والوصول اليه يتم من خلال طريق طويلة صاعدة تظللها الاشجار، وتدخل اليه من مدخل بسيط، نقشت سورة الفتح في القرآن الكريم على لوحة خشبية كبيرة تحيط بالجزء الأعلى من رواق المدخل.. ويؤدي هذا المدخل إلى فناء كبير في صدرها مدخل ذو ثلاثة عقود عربية بديعة الزخارف وقد نقشت في مربعاتها قصيدة شعرية هذه



بعض أبياتها :

قصر بديع الحسن والاحسان
لاحت عليه جلالة السلطان

خير الملوك ابو الوليد المنتقى
من نخبة الاملاك من قحطان

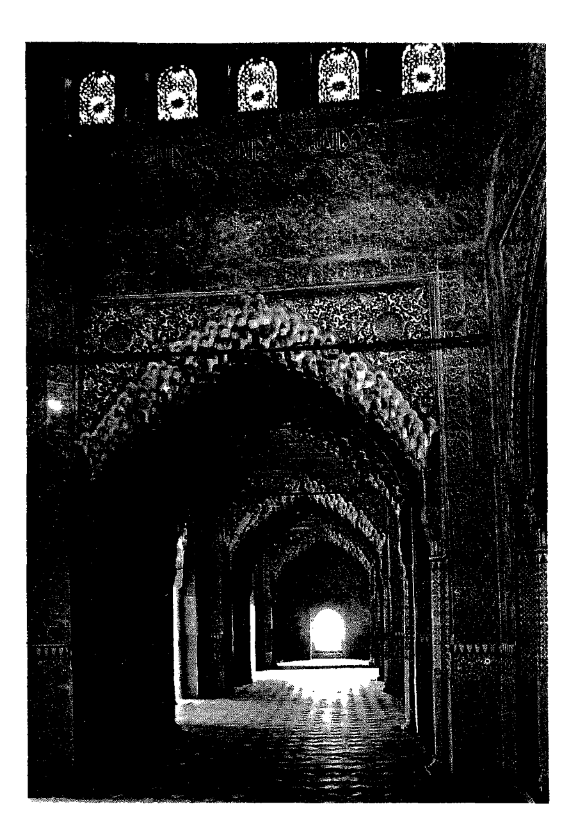
المقتدي بالطاهرين حدوده
أنصار خير الخلق من عدنان

لحقته منه عناية قد جددت
منه جمال مصانع ومبان

وقد نقشت آية الكرسي في القرآن الكريم، في الجزء الأعلى من هذا العقد، وفي القصر تتوزع عدة نقوش متفرقة بديعة، ان قصر جنة العريف يعتبر آية في فن الحدائق عند العرب لما يحتويه من تنوع في حدائقه حيث نرى اشجار الحور والريحان والازهار والورود من كل صنف ولون، ووسط كل ذلك تقوم برك الماء والنوافير.

وقد اقيم فيما بعد أي بعد نكسة غرناطة، بناء فوق قصر جنة العريف، أمرت ببنائه الملكة ايزابيلا، ويغلب اليوم الخراب على الطابق الأعلى ـ الدخيل ـ وقد نزعت نوافذه، ولكن الطابق السفلي ـ القصر العربي الأصلي ـ ما زال صامداً وشامخاً على الرغم من عوادي الزمن ومحاولات الوأد والتشويه.

بقي أن نتطرق إلى (البرطل)، وهو لفظ يطلق على مجموعة من المباني بقصر الحمراء شرقي بهو السباع، وهي تتكون من برج السيدات يلاصق قاعة أمامها رواق، وأمام هذه المجموعة بركة ماء، ويلاصق البرج عدة منازل صغيرة من الجهة الغربية، وتوجد في المنزل الأول منها رسوماً جدارية تمثل مناظر صيد وفرق جنود واسلحتهم ونقوش وزخارف هندسية بديعة.



«ولو وصفنا الحمراء بكل صفات البذاخة والثراء والجمال والرونق، ولو سميناها حسب اهوائنا دار المفاجآت، ثم الفنا فيها الكتب المتعمقة والمدائح الطويلة والأشعار البليغة، لما خطر ببال من زارها وتنقل في اجنحتها وشاهد روائعهـا، أن يتهمنـا بالمبالغة والاسراف، لأن الحمراء لا توصف ولا تمدح، بل تشـاهـد فقـط، وأي ذاكـرة تقدر على تسجيل واستحضار آلاف الصور والمشاهد الماثلة في كل مدخل ونافذة وزاوية»[1].

هذا هو قصـر الحمـراء في غرنـاطـة، أحـد صروح العرب الخالدة في الأندلس، ذلك الفردوس العربي السليب.

◆

---

١ ـ مسجد قرطبة وقصر الحمراء ـ الدكتور عبد العزيز الدولاتي.

غرناطة وآثارها الاخرى

كانت غرناطة آخر معاقل الدولة العربية الاسلامية في الأندلس، وقد احكم الاسبان الطوق عليها، فكانت نكستها المأساوية متجلية بسقوطها في عام ١٤٩٢م، وعلى الرغم من كل محاولات **الوأد والاستلاب** الحضاري الذي قام به اعداء امتنا العربية، فقد بقيت غالبية آثار العرب في غرناطة شامخة وهي تؤكد ان العرب امة اعطت التراث الانساني الشيء الكثير، وارست دعائم القيم واركان الحضارة.

فبالاضافة إلى قصر الحمراء الذي يشكل درة غرناطة الخالدة، ويمثل صورة حية من أيام العرب المجيدة في الأندلس، تبرز للملأ شواهد تاريخية اخرى في مدينة غرناطة وهي تفصح عن ماض عربي تليد.

آثار ملوك الطوائف:

انتعشت غرناطة كمدينة ناشئة أيام بني زيري في عهد ملوك الطوائف، حيث قام الاميران حبوس (١٠١٩ ـ ١٠٣٨)م، وباديس (١٠٣٨ ـ ١٠٧٣م)، ببناء سور منيع يحيط بمدينة غرناطة، وما زال هذا السور قائماً إلى حد الآن داخل مدينة غرناطة، حيث يقع فيما بين (باب البيرة) إلى (الباب الجديد)، وتتخلله الكثير من الأبراج. . وفي هذا الجزء من السور يوجد بابان هما (باب المنيتة) و(الباب الجديد)، ولتلك الابواب اقواس مبنية بالحجارة أو الآجر وتعلوها أقواس مدعمة.

وكـان قصـر بني زيـري قائماً في الجزء العلوي للقصبة القديمة ولم يبق شيء من هذا القصر سوى صهريج يشتمل على أربعة أقبية وبعض الجدران.

ومن الآثـار العتيقـة في غرنـاطة أو القصبة القديمة الباقية، الحمامات العربية، وتعرف باسم (الحمام الصغير)، وهو فعلاً حمام صغير، ولكنه كامل الصحن للاستـراحـة وخلع المـلابس، وفي وسطـه مغطس، ثم غرفـة للماء البارد، وقاعة الماء الساخن، تحت عقود صغيرة، ثم الموقد حيث يسخن الماء ثم يجري في أنابيب إلى الحجرة الساخنة.

وقد عثر في غرناطة على مخلفات من أعمال الزخارف، بالاضافة إلى مجموعة من تيجان الأعمدة.

آثار المرابطين والموحدين:

توجد بعض الآثار العائدة إلى أيام حكم المرابطين والموحدين، حيث عثـر على بعض القطـع الخشبية والجصية التي تنسب إلى العصر المرابطي، وقـد صنعت ببراعـة وجمـاليـة عاليـة، وهـذه القطع الاثرية محفوظة حالياً في المتحف الأثري بمدريد.

إن الأثـر الـوحيـد المتبقي في غرناطة من عصر المرابطين والموحدين هو القصر القائم في اقصى غرب مدينة غرناطة، ويعرف اليوم بقصر نهر شنيل.

آثار بني الأحمر:

إن ابـرز وانضـج آثـار مدينـة غرناطة، تلك التي تنسب إلى عهد بني نصر (بنو الأحمر).

لقد قام بنو الأحمر بتوسيع أسوار مدينة غرناطة، خارج حي البيازين أو البياسين.

وقـد شهـدت حركـة البنـاء والتعمير في عهدهم حركة واسعة النطاق خاصـة في نهايـة القـرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر، الأمر الذي

ادى إلى ظهور أروع العمائر والصروح، التي اشتملت على أجمل ما عرف في

الأندلس من زخارف ومنقوشات.

يتركز أهم ما تبقى من آثار غرناطة الاسلامية (بعد الحمراء وقصبتها) في حي البيازين، وهو ما يزال إلى يومنا هذا من أكبر أحياء غرناطة، وقد حافظ على طابعه الأندلسي.

يقع حي البيازين في شمال شرقي غرناطة، تجاه هضبة الحمراء، ويفصله عنها نهر حداره، ويمتد على سفح التلال حتى أسوار غرناطة القديمة.

وتوجد في حي البيازين ثلاثة من أبواب غرناطة الاسلامية، تحتفظ بعقودها العربية، وهي: (باب البيازين) و(باب فحص اللوز)، و(باب الزيادة)، ويقع الباب الأخير في ميدان أو رحبة باب الزيادة.

وهناك بقية من أسوار المسجد الجامع في غرناطة وعدد من بوائكه وجزء من صحفه، وشيدت على أنقاض مسجد المرابطين، كنيسة سان حوسيه، وما زالت مئذنة المسجد القديم قائمة وقد حولت إلى برج لنواقيس الكنيسة.

وما زالت كنيسة سان خوان دي لوس ريس تحتفظ بمئذنة مسجد اسلامي آخر يعود إلى القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي، بعد اضافة برج الأجراس اليها.

ويعتبر (باب الرملة) من أهم الميادين العربية في غرناطة، وفيه احرقت الكتب العربية بعد سقوط غرناطة، وباب الرملة ساحة فسيحة تحيط بها المحلات التجارية، وتتفرع منه عدة شوارع تحمل أسماء عربية مثل (شارع السقاطين).

أما (القيصرية) فهي السوق العربية الوحيدة الباقية لحد الآن، حيث كانت في العهد العربي الاسلامي، سوق غرناطة الكبير، وما زالت تحتفظ

بازقتها الضيقة، واعمدة محلاتها التجارية شبيهة باعمدة الحمراء في ساحة السباع.

وتقع جامعة غرناطة العربية، التي انشأها السلطان يوسف أبو الحجاج (٧٥٠ ـ ١٣٤٩م)، في درب ضيق اليوم وقد ازيل بناؤ ها الأصلي في القرن الثامن عشر، ولم يبق من مبنى الجامعة القديم سوى الجزء الذي يضم المحراب، أما النقوش العربية فقد نقلت إلى متحف آثار غرناطة وإلى متاحف اخرى متفرقة، وكانت تدعى هذه الجامعة في أيام العرب باسم (الجامعة النصرية).

ولم يبق من حمامات غرناطة القديمة العامة من عصر بني نصر سوى حمام واحد، يقع اليوم في شارع «كاليه ريال»، وينسب طراز هذا الحمام إلى النمط القديم، فهو يشتمل على ثلاث غرف مقباة تقوم على محور واحد، يسبقها غرفة للجلوس.

أما المستشفى أو الماريسان فقد تخرب، بيد انه احتفظ بمخططه الأصلي، حيث يحف باحته الوسطى، أروقة لها عقود محدبة في الطابق الأسفل، وكان موضع باب المارستان معروفاً إلى وقت قريب باسم «بينفاماسداد».

واكمل مبنى عربي باق إلى اليوم في السهل هو الفندق الجديد، وهو واحد من عشرات الفنادق التي قامت في غرناطة في القرن الرابع عشر الميلادي، ويعرف اليوم باسم مخزن الفحم، لأنه استخدم يوماً ما مستودعاً للفحم.

ولهذه الدار باحة تحيط بها البوائك ذات الطابقين، وتشبه عمارة هذا الفندق، طابع عمارة الفنادق المرينية في فاس بالمغرب، وللفندق بوابة ضخمة تعلوها النقوش والزخارف.

وعلى الطـريق الصـاعدة إلى تل البياسين، توجد (دار الحرة) نسبة إلى السيـدة عاشـة الحـرة زوجة السلطان النصري ابي الحسن الغالب بالله الذي تولى الحكم في عام (٨٦٨هـ - ١٤٦٣م)، وكانت امرأة مقدامة وباسلة.

◆

الفصل السادس

الثقافة العربية في غرناطة

● على الرغم مما حلّ بالتراث الثقافي العربي الاسلامي الوسيط من نكبات تدميرية شرسة، على أيدي الصليبيين والتتار ومحاكم التفتيش، فان هذا التراث الثقافي يبقى أعظم ما خلفته الامة العربية اطلاقاً.

المفكر العربي اسماعيل العرفي

في مرحلة الانطلاق الاولى، اثناء عبور العرب إلى الأندلس، لاتكاد توجد آثار لأي نمط من أنماط الحياة الثقافية والفكرية في الأندلس، حيث نجد ان الفترة التي أعقبت الفتح العربي الاسلامي بقيادة طارق وموسى، خالية من البصمات الثقافية، حيث ان تلك الحقبة كانت ظروفها لن تسمح للجوانب الابداعية ان تأخذ دورها، وذلك لانشغال العرب بارساء دعائم الفتح ومؤسساته، يضاف إلى ذلك، ما نشب من مخاصمات أبرزها ما حصل بين القيسية واليمانية.

لقد تحول الكثير من الاسبان إلى الاسلام بعد دراسته وفهمه، فقد وجدوا فيه الصورة المثلى، وتحسنت في ظل كيانه ظروفهم القانونية والاجتماعية والاقتصادية.

وأصبح القرآن الكريم ـ كما هو الحال في العالم الاسلامي ـ المصدر الوحيد للتشريع في الأندلس

وبعد تأسيس الدولة الاموية في الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)، ازداد الاهتمام بالنواحي الفكرية والثقافية، وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسع **النطاق**، وكان الاهتمام الحثيث بدراستها بدقة واتقان، ذلك لأن اللّغة **العربية** هي لغة الدولة والسياسة والدين.

وكان عبد الرحمن الداخل يقول الشعر بين فترة واخرى، وهناك الكثير من الشعراء الذين اكتظ بهم بلاطه، ومنهم: عاصم بن زيد بن حنظلة التميمي.

وظهرت اتجاهات لدراسة الاسلام **وتحليل منطلقاته بعمق**، من خلال التقاء الآراء السياسية والدينية أو تصادمها، وكانت هذه المسألة مؤدية إلى الثقافة، ومن هنا ظهرت الآراء والانماط الفقهية بين المسلمين.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ازدهرت الثقافة العربية، نظراً لكون الامير يحب الشعر والفن، فقرب الشعراء والمبدعين، وخاصة زرياب الموصلي، ذلك المغني الفذ، والشاعر يحيى بن الحكم، الذي وصفه ابن حيان التوحيدي بأنه «حكيم الاندلس وشاعرها وعرافها».

لقد اجتهد امراء الاندلس في ان يكون لصروحهم مجد ادبي وفني يحاكي ما كان لقصور العرب في مشرق الوطن العربي.

أما على صعيد الموشحات فقد كانت من الآثار الثقافية والابداعية للأندلسيين، وقد ابتكر فن الموشح (مقدم بن معافى)، وصاغة على طراز نسق جديد للقوافي والأوزان الشعرية، ونظام جديد كذلك للأبيات، «وكلا الموشحة والزجل يختلفان اختلافاً ظاهراً عن نظام القصيدة العربية، فهما يستعملان اللّغة الدارجة - أي اللهجة المحلية - ويمزجان العربية في بعض الأحيان بعبارات من اللهجات الرومانسية»[1].

وفي عهد عبد الرحمن الثالث الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) (٩١٢ - ٩٦١م) انقذت الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس من التحديات

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي - آنخل جنثالث بالنثيا - ص ٦،

الخارجية التي كانت تستهدفها، كذلك من الخلافات الداخلية.

وقام الاندلسيون بالتأليف الموسوعي، وكتابة التاريخ وتطوير الابحاث العملية والادبية، والدراسات الفلسفية، ودراسة الرياضيات والفلك.

وكانت مكتبة عبد الرحمن الناصر دليلاً على مدى الرقي العالي الذي بلغته الثقافة الاندلسية في عصره.

أما الحكم الثاني (المستنصر) فكان من الحكام المثقفين، فقد ازدهرت الثقافة العربية على أيامه، وأمر بالتسامح وحرية الفكر، وشجع العلماء والادباء والمؤرخين والفلاسفة.

وفي فترة حكم المنصور بن ابي عامر شُجع الشعر الغنائي، كما شُجعت الدراسات الفلسفية، وكان المنصور بحد ذاته شغوفاً بالفلسفة، إلا أن انتقادات الفقهاء، جعلته، وهو السياسي المحنك الذي ينبغي ان يلتزم برؤاه البعيدة، حيث يقوم بالتضحية بشغفه في سبيل غاياته، أن يأمر باعادة ما كان للفقهاء من قوة وتأثير، حتى يستعيد تعلق الناس به، فقام بابعاد الفلاسفة وقرّب الفقهاء.

وبعد فتنة قرطبة وسقوط الخلافة، وظهور الطوائف، قامت منافسة حامية بين دول الطوائف في المجالات السياسية والثقافية والفكرية.

ان عصري الامارة والخلافة كانا بمثابة فترة اعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل جانب من جوانب الدراسات والأبحاث وتبلورت واختمرت لفترة طويلة، وعلى اثر احداث الشغب في قرطبة غادر العلماء والمثقفين هذه المدينة، وانتشروا في شتى نواحي الأندلس، وكذلك توزعت وتفرقت في كل ناحية مجاميع الكتب والمخطوطات التي كانت محفوظة في مكتبات قرطبة.

وفي هذه الفترة ظهر في قرطبة (ابن حزم) الاندلسي، صاحب المؤلفات العديدة وهو من اعلام الأندلس الخالدين، وان المتأمل في مؤلفاته

ومـا تتضمنـه من موجـودات غزيرة العطاء ليرى بوضوح مدى الحضارة التي بلغت من التقدم شأواً كبيراً.

ان كتب ابن حزم: (طـوق الحـمامـة)، و(الخصال)، وتاريخ الأديان (الفِصَل في الملل والنحل) تدل على مواهب وامكانيات عالية.

وهنـاك الكثـير من أعلام الثقافة في الاندلس مثل: ابن زيدون ذلك الطير الغريد الموله في ولادة بنت المستكفي، والمؤرخ ابن حيان المحقق ذي الاسلوب القوي الرشيق.

وفي غرنـاطـة ـ موضـوع بحثنـا ، ظهـر في سمائهـا من أعـلام الأدب والعلم مثـل المشـرقي ابي الفتـوح الجـرجاني وكان شاعراً وفيلسوفاً وفلكياً، وابن النغدلة، وأبي اسحاق الألبيري وغيرهـم.

أمـا الشعـراء والكتـاب ذوو المـواهب العـاليـة من أهـل غرناطة فقد اضطروا في هذه الحقبة إلى اللجوء إلى بلاط المرية.

وفي ظل حكم بني عباد في اشبيلية، ازدهر الشعر وطغى على ما عداه من اضرب الادب العربي وكان المعتضد والمعتمد من أعلام الشعراء.

وأما في طليطلة،حيث نشر بني ذا النون سيادتهم، فقد طغى التأليف العلمي على ما عداه. . ففي هذا البلد عاش الـزرقـالي، أبرع من انجبت الأندلس من علماء الفلك، ووضع نظرياته العلمية. . وكان ابو عثمان سعيد بن محمـد فيلسـوفـاً ورياضياً، أما ابن وافد فكان من أوسع اطباء عصره علماً بالمجـالات الطبيـة، وانجبت طليطلة إلى جانب هؤلاء مؤرخـين ومفكرين مثل: صاعد الطليطلي والحجاري.

بيد ان فترة التجزئة في مرحلة الطوائف هذه، كانت مؤدية إلى ضياع امـر الانـدلس سيـاسياً وحضارياً، لأن هذه الدويلات الصغيرة كانت على درجـة من الـوهن والضعف بحيث لا تقـوى على التصـدي لأيـة هجمـة تستهدفها، وأمام هذا الخطر كانت هناك على الرغم من الخلافات القائمة، محاولات لتوحيـد القـوى العربية الاندلسية، وهذا ادى إلى انشغال العرب

بالتصدي للمؤ امرات التي تستهـدفهم ، ولكن في الـواقـع كانت الهجمـة ضدهـم قوية وشرسة .

وفي عهد المرابطين برز الشاعر (ابن قزمان)، ووصل الاندلسيون إلى أعلى درجـات الأمن الثقـافي ، خاصـة في المناطق الجنوبية من الأندلس التي انحسروا فيهم بعد هجمات الاسبان .

كما ازدهـرت الآداب والعلوم والفنـون في عصر الموحدين ، فقد برز في مجال الشعر: ابن سعيد ، وعبد الرحمن السهيلي ، ومحمد بن جبير ، وابو البقاء الـرنـدي ، وابن الأبـار ، وقـام عقيل بن عطية ، وابو العباس احمد الشريشي بشـرح مقـامـات الحريري ، وفي مجال التاريخ برز ابن الآبار ، وفي الجغرافية ابن جبير ، وفي الفلك البطروجي ، وفي الطب بنوزهر ، وفي علم النبات نبغ ابن البيطـار ، والاقليش وابن قرقـل في علم القـانـون والشريعة الاسلامية ، وابن السيد البطليوسي وابو علي الشلوبيني في النحو والصرف .

وكانت الفلسفة اوفر نواحي **ومجالات** لثقافة العربية الاسلامية حظاً من الاهتمام والعناية في فترة حكم الموحدين للأندلس .

ومنذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، كانت الاندلس **لقمة** سائغة في افـواه القـوط الاسبـان الذين اسقطوا دويلات العرب المجزأة الواحدة تلو الأخـرى ، وادت هذه الاكتسـاحـات الهمجيـة لمعاقل العرب والاسلام إلى انكماش الكيان العربي الاسلامي **واقتصاره** على مملكة غرناطة فقط .

بقي مستوى الثقافة رفيعاً في مملكة غرناطة حتى القرن الخامس عشر الميـلادي ، فبر ز فيهـا شعـراء من طراز ابن سعيـد المغربي ، وأثير الدين أبي حيان ، ولسان الدين بن الخطيب ، وهم يتغنون بقصائدهم المعبرة عن ايام العرب المجيدة في الأندلس .

ونبغ في غرناطة مؤرخون اهتموا بكتابة الحدث التاريخي وتحليله كابن الخطيب ، وعبد الرحمن ابن خلدون ، ورزين بن معاوية ، وابن رشيد .

كما برز في غرنـاطـة في مجال علم الـرياضيات : ابن البنّاء والرقوطي ،

وظهر فيها نحويون مثل اثير الدين ابي حيان، الذي هجر إلى المشرق وأقام فيه بقية حياته ينشر علومه، وكان أيضاً ملماً بالفقه الاسلامي.

وتجلى في غرناطة كذلك علماء في الشريعة والقانون الاسلامي مثل محمد بن احمد بن حرب، الذي لا زال كتابه (التحفة) متداولاً متدارساً إلى اليوم في جامعة فاس بالمغرب.

وظهر في غرناطة محدثون مثل ابن سيد الناس، وعمر بن نور الدين الانصاري الذي انتقل إلى مصر.

ونعود الى الشعر العربي في غرناطة، لنرى بأن ظروف التطويق قد أثرت عليه مثله في ذلك مثل غيره من فروع الثقافة العربية في الأندلس عامة وغرناطة خاصة، حيث كانت تعيش على اصداء الماضي.

ان ظروف التدخل السياسي والعسكري الاسباني في شؤون الأندلس واحتلالهم غالبية اجرائه انعكس ذلك على الجانب الثقافي فنرى ان العصر الغرناطي (٥٦٦-٨٩٨هـ) (١٢٦٦-١٤٩٢م) يمكن تقسيمه من الناحية الثقافية الى ثلاث فترات وهي:

أ - فترة غرناطة العربية الأولى التي غلب عليها التأثير المسيحي، وكان ذلك على أول أيام دولة بني نصر (بنو الأحمر).

ب - فترة ثانية متوسطة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، اختلطت فيها المؤثرات العربية الاسلامية.

جـ - فترة خلال القرن الخامس عشر الميلادي، كان طابعها العربي الاسلامي، فقد كانت السمات العربية واضحة ومتجلية على مملكة غرناطة

ولقد عبر ابن خلدون عن ذلك بأجلى بيان في مقدمته:

«وكأني بالمشرق قد نزل به مثل مانزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالاجابة، والله وارث الأرض ومن عليها. واذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث».

وتظهر لنا في عالم الشعر خلال عصر غرناطة شخصيتان تكاد تكونان فريدتان في مجالهما: الأولى شخصية لسان الدين بن الخطيب (٧١٣/١٣١٣ - ٧٧٦ - ١٣٧٤) اكبر مؤرخي ذلك العصر واعظم شعرائه، ونذكر من شعره قصيدته العصماء التي توجه بها الى أبي عنان سلطان بني مرين، وكان موفداً من قبل ملك غرناطة محمد الغني بالله، ومطلعها:

خليفة الله، ساعد القدر
علاكَ، ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته
ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى
لنا، وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا

وهناك قصيدة اخرى لابن الخطيب، نحا فيها منحى الأقدمين، وقد توجه بها الى أبي سالم سلطان مراكش، يسأله فيها أن يجير محمد بن يوسف بن اسماعيل بن نصر المخلوع عن عرش غرناطة، ومطلعها:

سلا، هل لديها من مخبرة ذكر
وهل أعشب الوادي ونم به الزهر
وهل باكر الوسمي داراً على اللوى
عفت يّها الا التوهم والذكر
بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى
باكتافها، والعيش فينان مخضر
وجوي الذي ربى جناحي وكره
فها أنا ذا مالي جناح ولا وكر

رويـــدك بعـــد العسر يسر فأبـشـــري

بانـــجـــاز وعـــد الله ، قد ذهـب الـعـســـر

وله أبيات رائعة أوحاها اليه وقوفه أمام ضريح المعتمد بن عباد، قال فيها:

لم لا أزورك يا أنـدى الملوك يداً

ويـا سراج الـليـالي المـدلهـمات

وأنـت من لو تخطى الـدهـر مصـرعـه

الـى حيـاتـه لجادت فيـه أبـيـاتـي

كرمـت حيـاً ومـيـتـاً واشـتـهـرت عُلى

فأنـت سلطـان أحـيـاء وأمـوات

ما رؤي شـلك في ماض ومـعـتـقـدي

الا يُرى الـدهـر في حال ولا آت

أمـا الشخصيـة الثـانيـة سياسياً وثقافياً، وآخر علم من أعلام الشعر الأندلسي فهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أحمد الشريحي المعروف بابن زمرك (٧٣٤/١٣٣٣ - ٧٩٦/١٣٩٣)، وهـو تلميذ ابن الخطيب وخلفه في وزارة غرنـاطـة، وقـد برع ابن زمرك الغـرنـاطي بالـوصف والمرتجلات والموشحات، وكان عالماً فقيهاً باللّغة العربية مالكاً زمامها، وأكثر شعره دلالة على شخصة وابداعه تلك الأبيات التي قالها في وصف قنديل مضاء:

لقـد زادني وجـداً وأغـرى بي الجـوى

ذبـال بأذيـال الظـلام قد الـتـقـا

يلوح سنـانـاً حين لاتـنـفـح الـصـبـا

ويـبـدي سواراً حين تثـنـى له الـعطـفـا

قطـعـت به ليـلا يطـارحـني الجـوى

فآونـة يبـدو وآونـة يخفـى

اذا قلت لايبدو أشال لسانه

وان قلت لايخبو الضياء به كفا

الى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى

وأهدى نسيم الروض من طيبه عرفا

لك الله يا أصباح، اشبهت مهجتي

وقد شفها من لوعة الحب ما شفا

والى جانب قصائده في المدح كان ابن زمرك الغرناطي ينظم مقطوعات وصفية، وخاصة في صفات قصور الحمراء وبساتينها والحفلات التي كانت تقام في الحمراء، وفيما يلي قصيدة لابن زمرك في وصف حدائق قصر شنيل وقد خرج الملك محمد الخامس (الغني بالله) للنزهة فيها:

ياقصر شنيل وربعك آهلُ

والروض منك على الجمال قد اقتصر

لله بحرك والصبا قد سردت

منه دروعاً تحت أعلام الشجر

والآس حف عذاره من حوله

عن كل من يهوى العذار قد اعتذر

قبّل بثغر الزهر كفّ خليفة

يغنيك صوب الجود منه عن المطر

وانظم غناء الطير فيه مدائحاً

وانثر من الزهر الدراهم والدرر

وللوزير الشاعر ابن زمرك قصائد اخرى في وصف قصور الحمراء، وقد اوردنا قسماً منها في المحاور المتعلقة بقصور الحمراء في كتابنا هذا.

ان شعر ابن زمرك الغرناطي وهو يصف صروح الحمراء الجميلة يبدو وكأنه انغام شجية ذات انسيابية متدفقة وهي تعانق الزهور والنجوم، وتفيض بالايقاعات الرائعة والأخيلة والتشبيهات المتشابكة، وان من يرى

بام عينيه هذه القصور البديعة ليجد في شعر ابن زمرك خير تصوير وتجسيد لها.

ان أناشيد ابن زمرك وصيحاته العروبية التي يتردد صداها في أرجاء الحمراء حتى يومنا هذا، والتي نقشت بريازة جمالية عالية على جدران صروح الحمراء بحيث كوّنت جزءاً لاينفصل من زخارف بني نصر، هي معنويات الماضي المجيد، وآفاق التواصل العربي.

وفيما يلي نموذجاً منها أبياتاً بعضها منقوش على جدران (قاعة الاختين) في الحمراء، وهي من قصيدته المعروفة التي قالها في وصف دار الملك التي ابتناها السلطان محمد الغني بالله ومطلعها:

سل الأفق بالزهر الكواكب حاليا
فاني قد اودعته شرح حاليا
وحملت معتل النسيم أمانة
قطعت بها عمر الزمان أمانيا

ويقول فيها:

ولله مبناك الجميل فإنه
يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متنزه
تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به
ولم تك في أفق السماء جواريا
ولو مثلت في سابقيه لسابقت
الى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا
به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة جللته بحليها
من الوشي تنسي السابري اليمانيا

وكـم من قسـي في ذراه ترفـعـت
على عمـد بالـنـور باتـت حواليـا
فتـحسـبهـا الأفـلاك دارت قسيهـا
كظـل عمـود الـصـبـح اذ بات باديـا
سواري قد جاءت لكـل غريـبـة
فطـارت بها الأمـثـال تجري سواريـا
به الـبـحـر دفـاع الـعـبـاب تخالـه
اذا ما انـبرى وفـد الـنـسـيـم مبـاريـا

وعاش في ذلك العصر ابن الحجاج النميري، وقد سبق لسان الدين ابن الخطيب بجيـل اذ توفي سنـة ٧٦٤ (١٣٦٢م)، وقـد ولـد في وادي آش وسكن في غرنـاطـة وفيها عاش، وكان كاتباً ذا اسلوب ساخر، ومما يذكر عنه انه كان شيق الحديث ذا طبقة عالية في الشعر.

أمـا على صعيـد المـوشحات الأندلسية فقد أحب أهالي غرناطة هذا اللّون الشعري وتعلقوا به، وأقبل عليه من أهل العلم والمعرفة والفن مجموعة مثـل النحـوي ابي حيـان بن حيـان، وابن عبـد العظيم الوادي ، والوزير الفنـان ابن زمـرك الغرناطي الذي اشتهر «بصبحياته»، وذي الوزارتين لسان الـدين بن الخطيب ـ الشـاعر الناثر المعروف ـ، بل ان ابن خلدون يذكر انه عنـدمـا زار غرناطة وجد (الموشح) و(الزجل) هما لونين من الفنون السائدة في غرناطة، وقد اهتم الموريسكيون فيما بعد بنظم الزجل ايضا.

وعلى صعيـد كتـابـة التـاريـخ وفلسفتـه فقد بلغت ذروتها في غرناطة خلال القـرن الـرابـع عشـر الميلادي، وقد برع في ذلك علمين خالدين من أعـلام الفكـر والثقـافـة العـربيـة، هما لسـان الـدين بن الخطيب السياسي والمؤرخ والشاعر، وابن خلدون مبتكر ومبدع فلسفة التاريخ، الذي ولد في تونس، وأمضى فترة من حياته في غرناطة.

ويقـول المتشـرق الاسباني آنخل بالنثيا في كتابه الموسوم (تاريخ الفكر

الأندلسي): لم يفتر شغف الناس بالدراسات التاريخية خلال العصر الأخير من عصور تاريخ الأندلس الاسلامي، وهو عصر مملكة غرناطة، ومن الأدلة البينة على ذلك قيام أبي عبد الله بن أبي القاسم بن الحكم الرندي بكتابة مؤلف في «تاريخ الأندلس»، واهتم ابن الفارق بتصنيف مؤلف في «تاريخ بني نصر»، وهو كتاب سطا عليه ابو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي في كتابه المسمى «نزهة البصائر والأبصار» الذي فرغ من تأليفه سنة ٧٨١ هـ - ١٣٧٩م وقد اكثر لافوينت الكانترا من الاعتماد على هذا الكتاب.

بيد أن لسان الدين بن الخطيب يطغى على اولئك جميعاً بشخصيته وسيرته ومؤلفاته.. ولد لسان الدين محمد بن الخطيب في لوشة سنة ٧١٣هـ - ١٣١٣م، ودرس في غرناطة، وشغف بالعلوم الفلسفية والطبية، وأقبل يدرسها على يد الطبيب العربي الغرناطي المشهور يحيى بن هذيل، وظهرت براعته في نظم الشعر كما اسلفنا ذلك، وبرز علمه وطلاعه الواسعين في مجالات الأدب العربي في سنه الباكرة.

لقد اخذ ابن الخطيب بنظم القصائد في مديح يوسف الأول بن الأحمر، وأعجب به ابو الحجاج يوسف - الثاني - بن محمد - الخامس - بن الأحمر (٧٩٣ - ٧٩٧)هـ (١٣٩٠ - ١٣٩٤)م، وعمل مع الوزير ابن الحسن علي بن محمد بن الجياب الغرناطي «شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية» كما يقول ابن خلدون، وعندما مات ابن الجياب حل ابن الخطيب محله في الوزارة.

وأول ما نذكره من كتب ابن الخطيب كتابه «الاحاطة في تاريخ غرناطة»، وهو مجمع أعلام جمع ابن الخطيب فيه سير المبدعين والنابهين من أهل مملكة غرناطة ومن وفد عليها وسكنها، وقام بتقسيمه ثلاثة أقسام بحسب الموقع وطبيعة العمل، فالقسم الأول للملوك والامراء، والقسم الثاني للعمال، والقسم الثالث للمبدعين وذوي النباهة كالقضاة والمتحققين

بعلوم القرآن والمحدثين والفقهاء ومن اليهم، واورد فيه ترجمة نفسه وذكر أسماء سبعة وثلاثين من مؤلفاته، واسلوبه في مرصع فخم، ولهذا الكتاب ملحق توجد منه نسخة في مكتبة الاسكوريال باسبانيا.

وقد قام بدر الدين المصري في سنة ٧٩٣هـ - ١٣٩١م باختصار «الاحاطة» في كتابه أسماه «مركز الاحاطة»، استبعد منه ذكر السلاطين والامراء ولم يبق فيه إلّا أهل الأدب.

وقد صنع المصري مختصره هذا من نسخة أوفى من تلك التي هي محفوظة اليوم، ولهذا فنحن نظفر فيه بقصائد ومواد كاملة لا نجدها فيما بين أيدينا من نسخ الاحاطة.

وقد صنّف ابن الخطيب في تاريخ الخلفاء المشرق والمغرب والأندلس كتاب «الحلل المرقومة» وضمنه بعض أخبار الأندلس والمغرب، ونظم بعض أحداث هذا التاريخ في قصيدته عن التاريخ.

وألّف في تاريخ غرناطة وبني نصر طائفة من الكتب منها «اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، وهو تاريخ دولة بني الأحمر في غرناطة سنة ٧٦٥هـ - ١٣٦٣م، و«طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر»، وحشد ابن الخطيب مادة تاريخية طيبة عن خلفاء المشرق والمغرب والأندلس في كتاب «إعلام الأعلام بمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ومايتعلق بذلك من الكلام»، وقام بتأليف كتاب «التاج المحلي» عن ادباء الأندلس في القرن الثامن الهجري، وعمل له ذيلاً عنوانه «الاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر»، هذا بالاضافة الى كتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» وهو مخطوط يوجد حالياً بمكتبة مجمع التاريخ في مدريد.

وقام ابن الخطيب الى جانب ذلك بتصنيف كتب عديدة وصف فيها رحلاته، وهذه الكتب تتضمن معلومات قيمة عن بعض بلاد الأندلس، وخاصة ماكان منها في مملكة غرناطة

ان المعلومات التاريخية التي يوردها ابن الخطيب في كتبه صحيحة وواقعية ودقيقة، وهي مرجعنا الأوثق في معرفة تاريخ الدولة العربية الاسلامية في غرناطة.

أما المفكر والمؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون فقد ولد في تونس بأفريقيا العربية، وأما أجداده فهم من عرب الأندلس، وقد درس على يد اساتذة اندلسيين، واقام في مملكة غرناطة زمناً، ونبغ في علم السياسة وعلم التاريخ وعلم الاجتماع.

لقد تقلد ابن خلدون مناصب سياسية رفيعة في تونس والقاهرة، وكان رجلاً حسن الهيأة انيقاً معتنياً بمظهره، وكان سياسياً ناضجاً عاقلاً مهذباً عارفاً بما ينبغي لحواشي الرؤساء والسلاطين من أدب وبروتوكول.

وابن خلدون مشهور بكتابه القيم «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، وينقسم الى ثلاثة كتب: الأول هو «المقدمة» المشهورة، ويوجز ابن خلدون الكلام عنها في استهلالها بقوله انها تدور حول العمران، وذكر مايعرض فيه من العوارض الذاتية، من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنايع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب.

والكتاب الثاني من «العبر» يدور حول أخبار العرب وأجيالهم وأولهم منذ بدء الخليقة الى هذا العهد، وفيه الالمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم.

أما الكتاب الثالث فيتناول أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليهم وأجيالهم، وماكان بديار المغرب خاصة من الملك والدول.

هؤلاء هم أعلام الثقافة والفكر العربي في غرناطة، لقد كانوا شاهداً على قوة الحيوية والعطاء المتوفرين في الثقافة العربية في غرناطة، فقد استطاعت هذه القيم الابداعية على البقاء والتواصل رغم قلة ماتستطيع دولة غرناطة الصغيرة أن تهيئه لها ولأصحابها من ظروف تسير بها الى مراحل

الازدهـار والانتعـاش، بسبب ظروف المحـاصـرة المفـروضـة عليها من قبل الاسبـان، واستجـابـة لمستلزمـات التصـدي والدفاع عن غرناطة آخر قلاع العرب في الأندلس السليب.

إن آفـاق غرنـاطـة السيـاسيـة والحضـاريـة ستبقى متـواصلة المعـاني والـدلالات، متجـذرة في الصميم العـربي، وهي تحفـز الانسـان العـربي الراهن على إستشراف تاريخنا العربي الاسلامي المجيد، واستلهام مؤشراته لتحقيق وحدة العرب وتماسكهم، وبناء حضارتهم المعاصرة.

◆



موجز تاريخ الأندلس العربي

٩١ هـ - ٧١٠/ ٧١١م:

وصـول الطـلائـع العـربية الى الأندلس، بعد عبورهـم البحر، فقد انطلقـوا من سبتة في المغرب، ونزلوا في الجهة المقابلة التي عرفت باسم جزيرة طريف، نسبة الى القائد طريف بن مالك.

٩٢ هـ - ٧١١ م:

اعداد سبعة آلاف مقاتل عربي تحت قيادة طارق بن زياد، وعبورهـم البحر ونزولهم جبل طارق، والسيطرة على ولاية الجزيرة.

٩٢ هـ - ٧١١ م:

نشـوب معـركـة ضاريـة بين العـرب المسلمـين والقوط الاسبان على ضفتي نهر وادي لكة الذي يصب في خريج قادش، لقد انتصر القائد طارق بن زياد، وتشتت فلول العدو القوطي، وامتنعت بالقلاع.

ثم تم التقـدم الى شذونـة، والتقـدم شمالا وخوض معارك أثبت فيها العـرب شجـاعة فائقة - الزحف الى طليطلة عاصمة القوط - السيطرة على قرطبـة - الـزحف في اتجـاه غرنـاطة والبيرة ومالقه - فتح غرناطة - عبور جبال استـوريـا على خليـج غسقـونيـا - وصـول أوامر القائد موسى بن نصير الى القائد طارق بن زياد بالعودة الى طليطلة.

٩٣ هـ - ٧١٢ م:

وصـول موسى بن نصـير من أفـريقيا العربية، وزحفه الى اشبيلية - الاستيـلاء على ماردة - مقـابلة القـائـدين موسى بن نصـير وطارق بن زياد بالقـرب من طليطلة - قيـام موسى بمحـاسبـة طارق - زحف القـائدين الى ولايـة اراغـون - فتـح سرقسطـة وتـراغونه وبرشلونه وغيرها وبناء مسجد في سرقسطة - الاستيلاء على قرقشونة (جنوب فرنسا) وأربونة.

٩٥ هـ - ٧١٤ م:

عودة موسى بن نصير الى المشرق العربي - الخليفة الأموي في دمشق يستدعي القائدين - قام موسى بن نصير بارساء دعائم حكومته في الأندلس قبل رحيله، وجعل حاضرة العرب في اشبيلية، وعهد بادارتها الى ابنه عبد العزيز بن موسى.

٩٦ هـ - ٧١٥ م:

استيلاء العرب في أيام عبد العزيز على جيرونه.

٩٨ هـ - ٧١٧ م:

وفاة القائد موسى بن نصير.

٩٩ هـ - ٧١٨ م:

القائد الحر بن عبد الرحمن الثقفي يتقدم باتجاه لانجدوك.

١٠٠ هـ - ٧١٨ م:

القائد السمح بن مالك الخولاني يزحف الى طولوشة ويستشهد هناك - القائد عبد الرحمن الغافقي يتولى القيادة ويمتنع العرب في اربونة.

١٠٦ - ٧٢٤ م:

القائد عنبسة بن سحيم الكلبي يجتاز جبال البرانيس - استيلاؤه على نيم - وفتحه قرقشونة.

١٠٧ - ٧٢٦ م:

استشهاد القائد عنبسة في كمين باحدى المعارك.

١١٣ - ٧٣٢ م:

الهيثم بن عبيد يتولى الامارة في الأندلس - عبورة جبال البرانيس - غزو ليون وشالون - القائد عبد الرحمن الغافقي يخترق ولاية اراغون ونافار ويدخل فرنسا في ربيع عام ٧٣٢ ثم يزحف الى آرتوا ويفتحها - يتقدم الى بوردو وليون وبيزانسون ويفتحهم ثم بنبلونة وتور - يتقدم باتجاه الشمال الفرنسي - عجّل بالمسير اليه شارل مارتل الملقب بالمطرقة في جيش لجب.

١١٤ - ٧٣٢ م:

معركة بلاط الشهداء حيث التقت الجيوش العربية تحت قيادة عبد الرحمن الغافقي بجيوش شارل مارتل الفرنسية - تحول النصر العربي الى نكسة استشهد على اثرها القائد عبد الرحمن الغافقي.

١١٦ - ٧٣٤ م:

الأمير يوسف الفهري عامل الأندلس يقوم بغارة كبرى في وادي نهر الرون وعبوره وفتحه: آرل وبروفانس وأفينيون.

١٣٣ - ٧٥١ م:

استيلاء بيبين القصير أول ملوك الاسرة الفرنجية الكارولينية على أربونة - وصول الطلائع العربية الى وديان غرب سويسرا.

١٣٨ - ٧٥٥ م:

وصول الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية الداخل الى الأندلس.

١٣٩ - ٧٥٦ م:

انتصار عبد الرحمن الداخل في معركة حاسمة ويتولى على أثرها السيطرة على قرطبة.

١٥٦ ـ ٧٧٣ م:

اعـلان عبـد الرحمن الداخل الاستقلال عن الخلافة العباسية ـ بداية الحكم الأموي في الأندلس وحاضرتها قرطبة.

١٧٠ ـ ٧٨٦ م:

وضع حجر الأساس للمسجد الكبير في قرطبة.

٧٩٦ : امارة الحكم الأول في قرطبة ـ اضطرابات وفتن وأعمال شغب في قرطبة.

٩١٣ : الخليفـة الأنـدلسي عبد الرحمن الثالث الناصر يؤدب المتمردين في طليطلة وابن حفصون.

٩١٨ : استيلاء عبد الرحمن الناصر على قرمونة وحصن سنتمارية.

٩٢٩ : اتخاد عبد الرحمن الناصر لقب (الخليفة) رسميا.

٩٣٧ : تحالف الشـمال الاسبـاني القـوطي ضد عبـد الرحمن، فاضطر الى السـير الى قلعـة أيوب وبطليوس وسرقسطة ـ قيامه بتأديب القوط والبشكنس واخضاعهم.

٩٣٩ : الحرب بين عبد الرحمن ورابدو الثاني.

٩٦١ : الحـرب بين الحكم والمستنصـر بالله وفـرديـنـانـد غونـزاليس أمـير قشتـالـة، وهزيمة الأخير شرهزيمة، واستيلاء العرب على سنت استيفان وعدة قلاع.

٩٨٥ : حارب محمد بن أبي عامر (المنصور)، الكونت بوريل أمير كاتالونيا وهزمه، واستولى العرب على برشلونة وعلى حصون أخرى في قشتالة.

٩٨٨ : استيلاء المنصور على مدينتي ليوني وزامورة.

٩٩٥ : يقوم المنصور بتولية معن بن عبد العزيز على زامورة.

١٠٠٢ : المنصور يقوم بآخر حروبه فيقتحم قشتالة ولكنه يتوفى ويدفن في مدينة سالم بعد أن قضى في الحكم ٢٧ سنة .

١٠١٥ : قام مجاهد الداني بغزو جزر البليار ـ ثم يستولي في السنة التالية على بعض أجزاء سردينية وكورسيكا (قورسقه)، ثم يوجه نشاطاته وفعالياته العسكرية باتجاه سواحل ايطاليا وغالية .

١٠٣١ : الغاء الخلافة الأموية وظهور الانقسامات على شكل امارات طوائف .

١٠٢٣ ـ ١٠٩١ : بنو عباد في اشبيلية .

١٠٢٧ ـ ١٠٣١ : هشام الثالث آخر الأمويين في قرطبة ، على أثر الغاء الخلافة الأموية في الاندلس وتفاقهم الخلافات ، وتأسيس امارات الطوائف .

١٠٥٠ : استرداد سردينية من ايدي المسلمين على يد الجنوبيين وحلفائهم بتشجيع من البابا ليو التاسع فكانت الخطوة الأولى لضياع السيادة العربية على غرب البحر المتوسط .

١٠٦١ ـ ١١٠٦ : يوسف بن تاشفين يؤسس دولة المرابطين التي حكمت في الفترة (١٠٩٠ ـ ١١٤٧) في المغرب واسبانيا العربية ـ اي جنوب اسبانيا ـ ويجعل خاضرته اشبيلية .

١٠٨٠ : استيلاء القطلان على طرجونة .

١٠٨١ : سقوط وادي الحجارة في ايدي القشتاليين .

١٠٨٣ : سقوط مدريد في قبضة الفونسو السادس ملك قشتالة .

١٠٨٥ : الفونسو السادس يغزو طليطلة .

١٠٨٦ : سقوط طليطلة في قبضة الفونسو السادس ـ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يهزم الاسبان في معركة الزراقة .

١٠٩٠ : حملة يوسف بن تاشفين على الأندلس وعزله ملوك الطوائف .

١١١٨ : سقوط سرقسطة في قبضة الأرجونيين .

١١٠٧ ـ ١١٣٠ : محمد بن تومرت يؤسس دولة الموحدين.

١١٤٧ : سقوط شنترة في قبضة البرتغاليين.

١٢١١٢ : انتصار الاسبان على الموحدين في الأندلس.

١٢٢٥ : الموحدون يغادرون الاندلس ـ قيام دولة بني مرين في فاس ـ وبني زيان في تلمسان ـ وبني حفص في تونس ـ وبني هود في الأندلس.

١٢٢٩ : استيلاء القشتاليين على ماردة.

١٢٣٢ ـ ١٤٩٢ : دولة بني نصر (بني الأحمر) في الأندلس وحاضرتها (غرناطة)، وهي آخر مراحل الدولة العربية الاسلامية في الاندلس.

١٢٣٦ : سقوط قرطبة في قبضة قشتالة.

١٢٤٣ : سقوط قرطاجنة في قبضة القشتاليين ـ استيلاء الأرجونيين على مرسيه.

١٢٤٨ : استيلاء فرناندو الثالث على اشبيلية.

١٢٥٣ : استيلاء الارجونيين على دانية.

١٢٩٢ : سقوط الريف في قبضة القشتاليين.

١٣٤٢ : سقوط الجزيرة الخضراء في قبضة القشتاليين.

١٤٦٢ : سقوط جبل طارق في قبضة القشتاليين.

١٤٨٢ : سقوط الحامة في قبضة فرديناند وايزابيلا.

١٤٨٦ : سقوط لوشة في قبضة فرديناند وايزابيلا.

١٤٨٧ : سقوط شذونة ومالقه وبلش مالقة في قبضة فرديناند وايزابيلا.

١٤٨٨ : سقوط مربلة (ماربيلا) في قبضة فرديناند وايزابيلا.

١٤٩٠ : سقوط وادي آش والمرية في قبضة فرديناند وايزابيلا.

١٤٩٢ : سقوط غرناطة ودخول فرديناند وايزابيلا قصر الحمراء.



المراجع

١ ـ ابن خلدون ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر .
٢ ـ المقري ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .
٣ ـ ابن الأثير الموصلي ـ الكامل في التاريخ . .
٤ ـ ابن الخطيب ـ الغرناطي ـ الاحاطة في تاريخ غرناطة .
٥ ـ السيوطي ـ تاريخ الخلفاء .
٦ ـ الحميدي ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس .
٧ ـ ول . ديورانت ـ قصة الحضارة .
٨ ـ الدكتور حسين مؤنس ـ رحلة الى الأندلس . .
٩ ـ الدكتور آنخل جنثالث بالنثيا ـ تاريخ الفكر الأندلسي .
١٠ ـ الدكتور محمد عبده حتاملة ـ التنصير القسري لمسلمي الأندلس .
١١ ـ الدكتور محمد عبد الله عنان ـ نهاية الأندلس .
١٢ ـ الدكتور محمد توفيق بلبع ـ غرناطة وقصر الحمراء .

محتويات الكتاب

التصدير ٥

الاهداء ١٤

المحور الأول

تاريخ غرناطة السياسي

الفصل الأول ـ فتح العرب الأندلس ١٧

مرحلة الانطلاق الأولى ١٨

الدولة الأموية في الأندلس ٢٣

ملوك الطوائف ٢٧

المرابطون ٢٨

الموحدون ٢٩

الفصل الثاني ـ العهد العربي الإسلامي في غرناطة ٣٢

فتح قطاع البيرة ـ غرناطة ٣٣

تصاعد دور غرناطة ٣٥

غرناطة المرابطين ٣٦

بنو الأحمر في غرناطة ٣٩

الفصل الثالث ـ نهاية مملكة غرناطة ٤٥

النكسة ٥٠

نص الاتفاقية السرية ٥٣

نص الاتفاقية العلنية ٨٥

زفرة العربي الأخيرة ٦٩

المحور الثاني
الحضارة العربية الاسلامية
في غرناطة

الفصل الرابع ـ قصر الحمراء ٧٥
الحمراء ... لمحة تاريخية ٧٥

الحصن والأسوار والأبراج ٨٤
حمامات الحمراء ٩١
جنة العريف ١٠٣

الفصل الخامس ـ غرناطة وآثارها الأخرى ١٠٨
آثار ملوك الطوائف ١٠٨
آثار المرابطين والموحدين ١٠٩
الفصل السادس ـ الثقافة العربية في غرناطة ١١٣
ملحق ـ موجز تاريخ الأندلس العربي ١٢٥
المراجع ١٣٦

إنّ مشهد السقوط التراجيدي لغرناطة ، والذي رافقته وأعقبته حالات الندم والحسرة على ضياع آخر معاقل وصروح الدولة العربية في الأندلس، يتكرر هذا المشهد في كل يوم من أيامنا الراهنة، فكل مدينة عربية هي غرناطة في ظل هذا العصر العربي المعتم .

وتتوالى الزفرات بعد أربعمائة عام من نكسة غرناطة حينما نجد فلسطين في ظل الاحتلال الصيهوني بسبب التفكك والولاءات المختلفة ، وهي الأسباب ذاتها التي أدت إلى ضياع الأندلس بعد أن تواصلت فيها العروبة والاسلام ثمانمائة عام .

إن في ذلك لعبرة . . . . .



السعر ١٠٠ ل.س